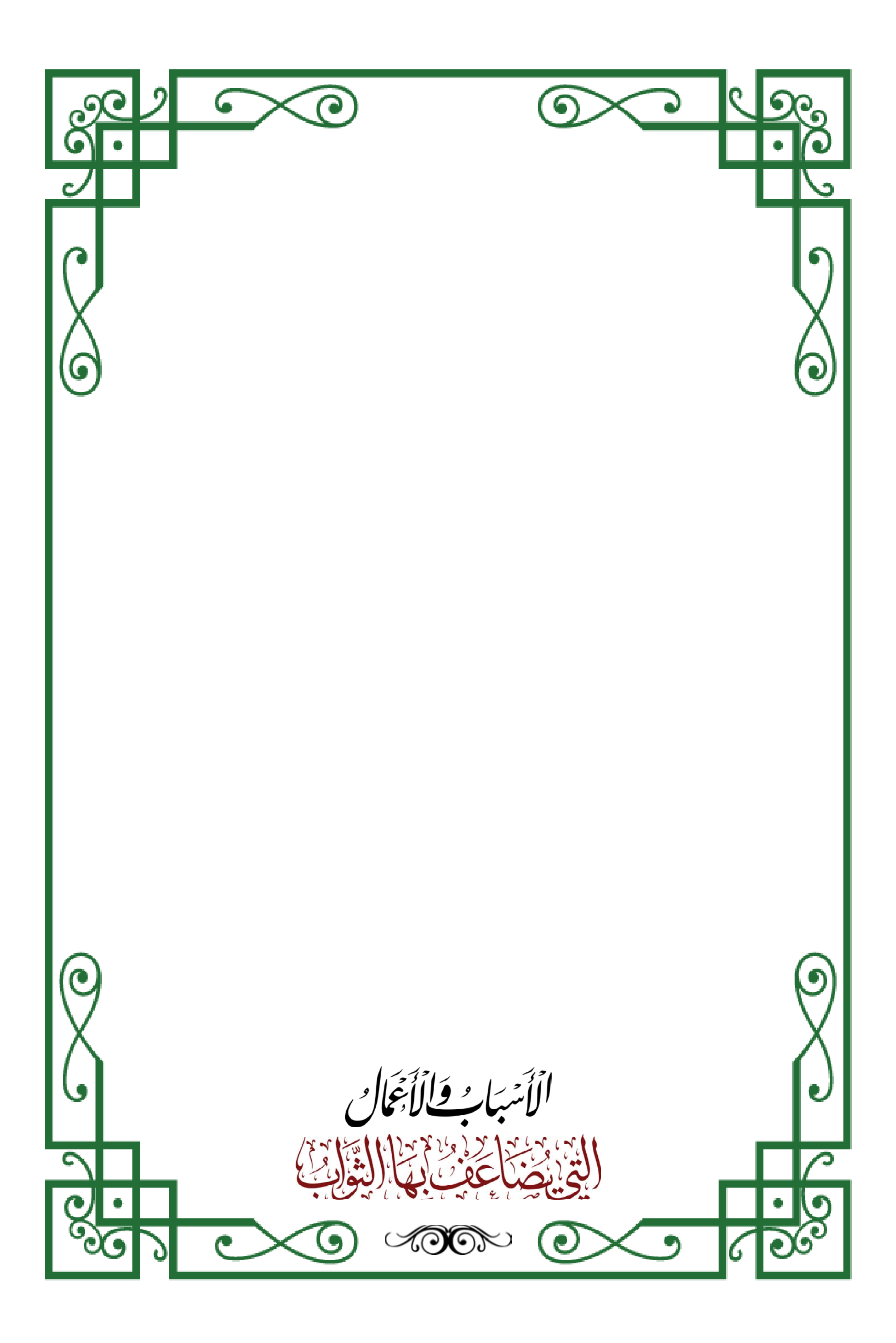
الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب

الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله




الأسباب والأعمال
التي يضاعف بها الثواب



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ — ٢٠٢١ م

دار الفرقان للنشر والتوزيع - ١٤٤٣/٢٠٢١

ردمك : ٩-٦٨-٦١٦-٩٩٣١-٩٧٨

الإيداع القانوني: السداسي الثاني، ٢٠٢١

Dar Al-furquan Edition. 2021

ISBN: 978-9931-616-68-9

Dépôt Légal: 2eme semestre. 2021

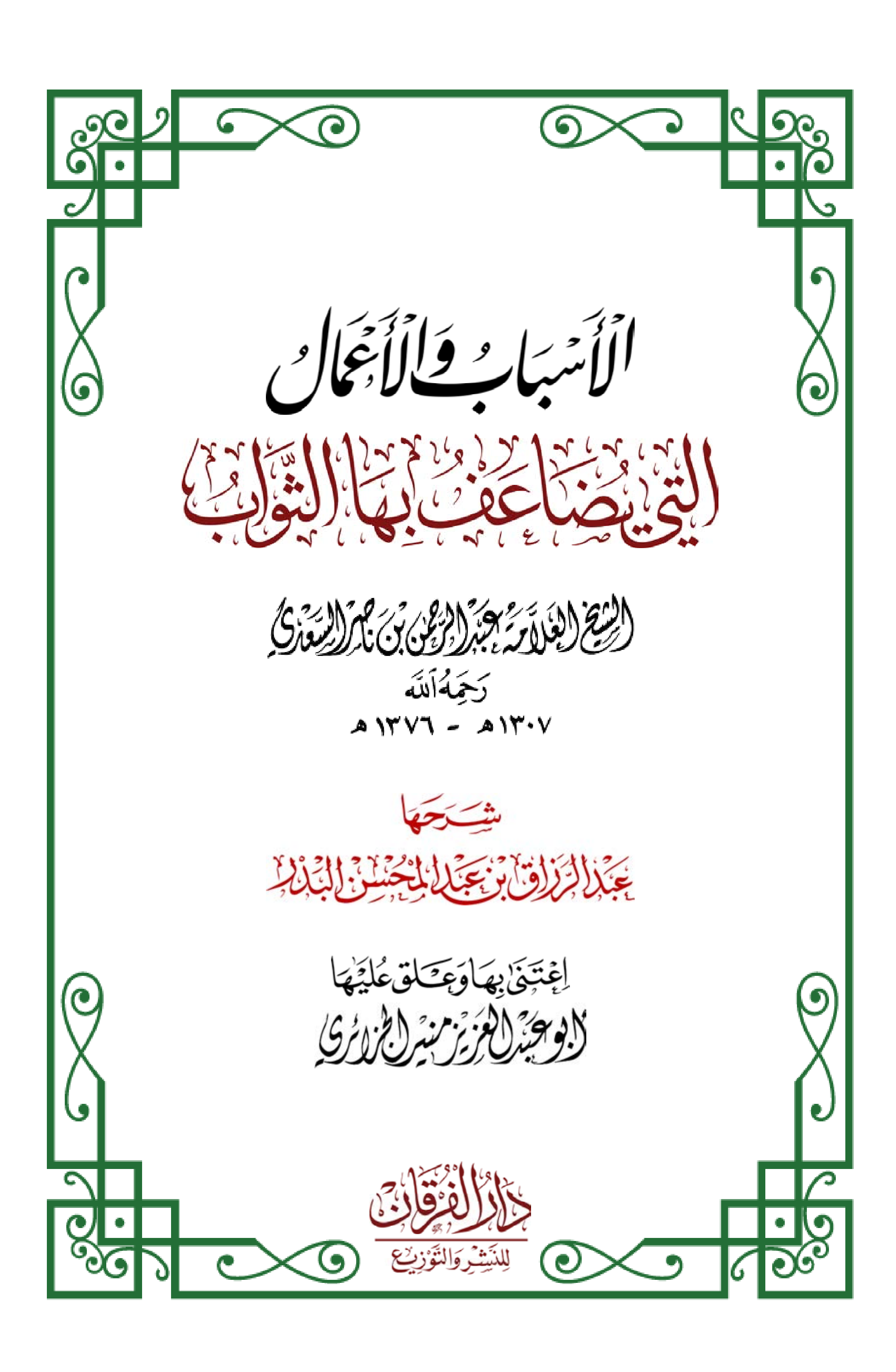
ISBN 978-9931-616-68-9

9 789931 616689

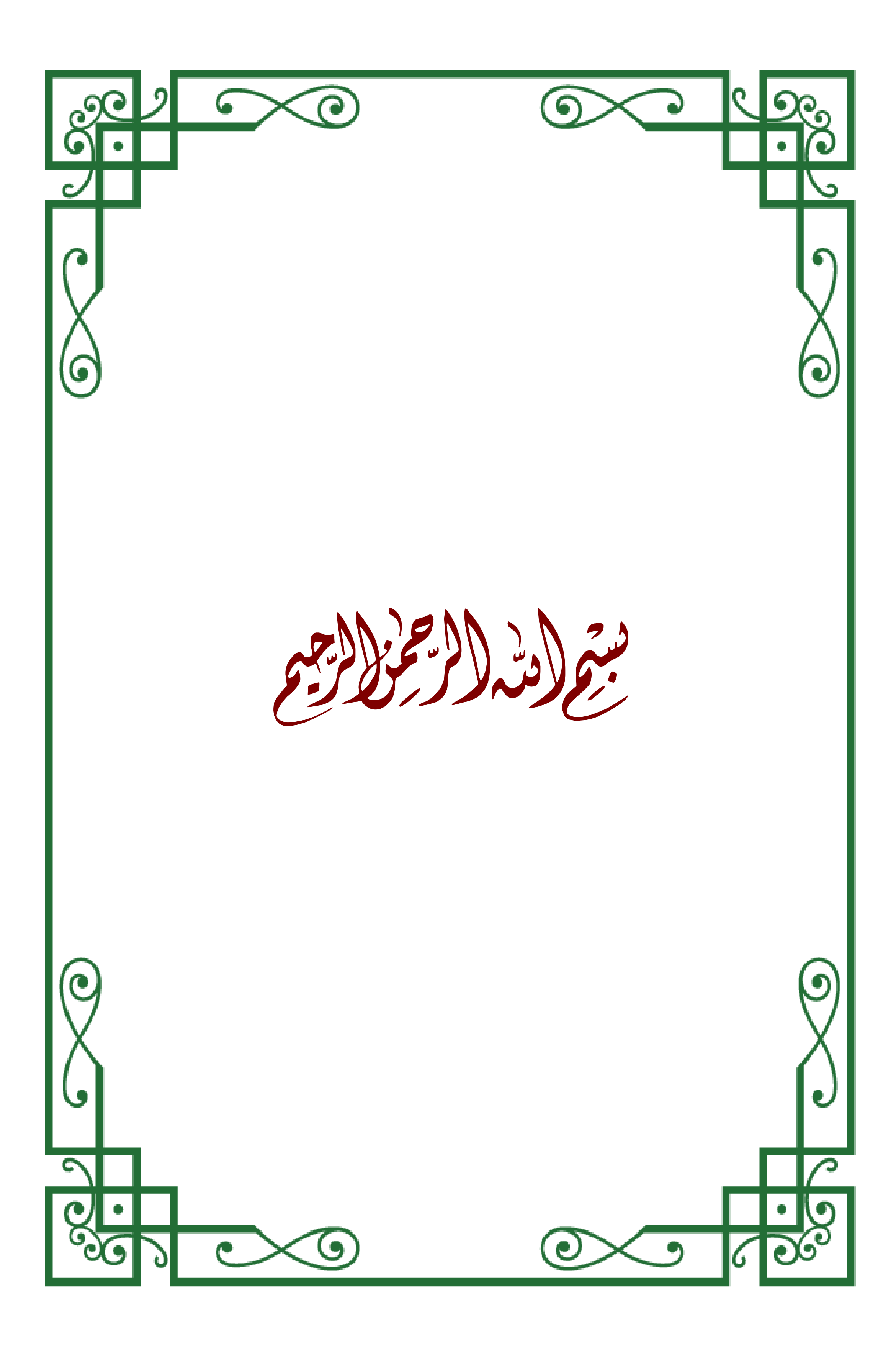
دار الفرقان للنشر والتوزيع

جوال: ٠٥٥٦٩٦٥٨١٠ (٠) ٢١٣ ٠٠

dar.alfurquan@gmail.com



الأسباب والأعمال
التي يضاعف بها الثواب
الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله
١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ
شرحها
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
إعتنى بها وعلق عليها
أبو عبد العزيز منير الجزائري
دار الفرقان
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المعتني

الحَمْدُ لله الَّذِي فَتَح لِأَوْلِيَائِه أَبْوَابَ الخَيْرَات، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِم الهِبَات الوَاسِعَة وَالمَسَرَّات، وَخذَلَ المُعْرِضِينَ عَنْه، فَبَقِيَتْ قُلُوبُهْم فِي الظُّلَمِ وَالضَّلاَلاَت.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـه إِلَّا الله فَاطِرِ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَات، الغَنِيُّ بِذَاتِه، المُغْنِي لِجَمِيعِ المَخْلُوقَات، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولَهُ أَكْمَلَ البَرِيَات.

اللَّهُم صَلِّ وَسَلِّم عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِه وَأَصْحَابِه أُولِي الفَضَائِل وَالكَرَامَات.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذا شرح نفيس، وتعليق وجيز على جواب سديد أجاب به العلامة الإمام عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سؤال قد يطرحه أحد السائلين الحريصين على العلم بالأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب عند رب العالمين.

ومما زاد هذا الجواب النافع نفعا شرح وتعليق شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

والمسلم حريص على تعلم ما ينفعه في عباداته وقرباته لربه ومولاه، وإذا كان

في أمور دنياه يحرص على التجارات الرابحة، والصفقات الناجحة فمن باب أولى أن يصرف شيئا من حرصه على آخرته.

ولذا قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه ينبغي لِمَنْ بَلَغَه شيءٌ في **فَضَائِلِ الأَعْمَال** أَنْ يعمل به ولو مرَّة واحدة ليكون مِنْ أهله، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَتْرُكَه مطلقا، بل يأتي بما تيسَّر مِنْه»(١).

إخواني في الله لقد وردتْ العديدُ مِنَ النُّصوص الشَّرعيّة الحاثَّة على المُسَارعة في الخيرات، والمسابقة في طريق الطَّاعات، لِكَسْب الحَسَنَات وتَكْفِير السَّيئَات.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٤٨].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والأمر بالاستباق إلى الخيرات قَدْرٌ زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإنَّ الاستباق إليها، يتضمَّن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومَنْ سَبَق في الدُّنيا إلى الخيرات، فهو السَّابق في الآخرة إلى الجنَّات»(٢).

فيا مَنْ عَزَم على السَّفر إلى الله والدَّار الآخرة، قد رُفِع لك عَلَمٌ فَشَمِّر إليه فقد أمكن التَّشْمير، واجعل سَيْرَك بين مطالعة مِنَّتِه ومشاهدة عَيْب النَّفس والعمل والتَّقصير.

(١) «الأذكار» (ص٢٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٤٨).

أي عبد الله السَّعادة كُلُّها في طاعته، والأرباح كلُّها في معاملته، والمِحَن والبلايا كلُّها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته: ﴿رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

إذا كنـــتُ أعلـــمُ عِلْمًـــا يقينًـــا
بـــأنَّ جميـــعَ حيـــاتي كَســـاعَهْ
فَلِـــمْ لا أكُـــون ضَـــنِينًا بِهـــا
وأَجْعَلُهـــا في صـــلاحٍ وطاعَـــهْ

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«المَوْتَى في قبورهم يتحسَّرون على زيادةٍ في أعمالهم بتسبيحةٍ وبركعةٍ، ومِنْهُم مَنْ يسأل الرَّجعة إلى الدُّنيا لذلك، فلا يقدرون على ذلك، قد حيل بينهم وبين العمل...

ورُئِيَ بعضهم في المنام فَقَال: نَدِمنَا على أمر عظيم: نَعْلَم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا أَحَبُّ إلينا مِنَ الدُّنْيا ومَا فِيها.

قال بعض السَّلف: «كُلُّ يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة»..

مَنْ أصلح فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أوخذ بما بقي وما

(١) «عدة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين» (ص٣٣٢) باختصار، وتصرف يسير.



مضى»[(١)].

هنيئا لقوم في طريق مرضاة الله أسرعوا حين لبّوا نداء ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، وفي مضمار الخيرات سابقوا لما استجابوا لـ ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾.

فيا إخواني ويا أخواتي ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾، ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وَعُوا حَتَّى لَا تُخْدَعُوا، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، لِنَيْلِ عَظِيم أَجْرِه وَثَوَابه.

جعلنا الله وإيَّاكم ممن قال عنهم: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾[(٢)].

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْته في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[(٣)].

فمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

---

(١) «لطائف المعارف» (ص٤٠٨).

(٢) [طه: ٧٥].

(٣) كان ذلك في المدينة النَّبويَّة، يوم الثلاثاء ٢٧ ذو القعدة ١٤٤٠هـ، الموافق لـ ٣٠/ ٧/ ٢٠١٩م.



تقبل الله منا ومنكم، ووفقنا وإياكم لكل خير.
اللَّهُمَّ انْفَعْنا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَعَلِّمْنا مَا ينْفَعُنا، وَزِدْنا عِلْمًا.

مُحِبُّكم في الله
أبو عبد العزيز منير الجزائري
واتساب: ٠٠٢١٣٥٥٥٩٠٣٠٩٥
abou-abdelaziz@hotmail.fr





مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا الشرح على رسالةٍ قيِّمة، بل مسألة عظيمة للإمام العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى جاءت في ضمن الجامع لفتاويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حول الأسباب والأعمال التي تتضاعف بها الأجور، ويتضاعف بها الثواب، وهذا بابٌ من الفقه عظيم المكانة، جليل المنزلة، رفيع القدر، ويحتاج إلى معرفته كل مسلمٍ ومسلمة، فما أشد حاجاتنا إلى أن نفقه هذا الباب العظيم الشريف؛ باب الأسباب والأعمال التي تتضاعف بها الأجور ويزيد بها الثواب؛ بحيث تكون صورة العمل واحدة عند هذا وذاك، لكن للأول من الأجر والثواب العظيم والأجر الجزيل عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما لا يدركه الثاني ولا يبلغه لتحقيق هذه الأسباب التي تتضاعف بها الأجور؛ بحيث تكون صورة العمل الظاهرة واحدة، لكن يتفاوت الأجر بين العاملين تفاوتًا عظيمًا بحسب التوفيق لهذه الأسباب أو عدمه.

والشيخ رحمه الله تعالى أورد سؤالًا طُرح حول هذا الموضوع: ما هي الأسباب والأعمال التي تتضاعف بها الأجور أو يتضاعف بها الثواب؟ وأجاب عنه، فيحتمل أن يكون سأله سائل، ويحتمل أن يكون رحمه الله تعالى طرح السؤال وأجاب عليه، وأيًّا كان الأمر فإن الجواب الذي أورده رحمه الله تعالى مع اختصاره ووجازته أتى على جوامع هذا الباب الشريف ومهماته، واعتنى فيه رحمه الله تعالى عناية بالغة بالتقعيد والتأصيل ولم يعتنِ بجانب البسط والتفصيل؛ لأن مقام ذلك أوسع ومجاله أرحب، فاعتنى رحمه الله تعالى عناية بالغة بالتأصيل وذكر القواعد والأصول الكلية الجامعة في هذا الباب مع إشارةٍ إلى بعض الأمثلة التي يتضح بها المقصود ويتبين بها المراد، وأفاد كثيرًا وأجاد رحمه الله تعالى.

وها أنا في هذا المقام أُذكر الجميع بأهمية نشر هذه الرسالة على نطاقٍ واسع، ولاسيما عند استقبال المواسم العظيمة والأزمنة الفاضلة من مواسم التجارة الرابحة، وتضاعف الأجر والثواب، فحقيقةً العناية بنشر هذه الرسالة ولاسيما في هذا الوقت من أهم ما يكون تذكيرًا وتبصيرًا وتعليمًا وتنبيهًا، ويكون مجال نشرها من خلال طبعها، ومن خلال أيضًا عناية الخطباء ببيان مضامينها، وكذلكم في الدروس وغير ذلكم من المجالات والوسائل التي تصل من خلالها هذه الفوائد العظيمة الثمينة النفيسة، وهي مع أهميتها وعظم مكانتها قليلة الانتشار حتى بين طلبة العلم فضلًا عن غيرهم، وهذا مما يؤكد أهمية العناية



بنشر هذه الرسالة.

ويوجد لهذه الرسالة شرحٌ مفرد مطبوع للشيخ الفاضل محمد بن إبراهيم الحمد حفظه الله، أوضح فيه مضامين هذه الرسالة، وذكر الشواهد والدلائل فأفاد - جزاه الله خيرًا - وأجاد، وهو - أي شرحه لهذه الرسالة - مطبوعٌ وفيه نفعٌ وفائدة عظيمة[1].

ونبدأ مستعينين بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سائلينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكتب لنا الإخلاص والتوفيق، والسداد، والعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يهدينا جميعًا إليه صراطًا مستقيمًا؛ فعليه التوكل والاعتماد، وهو المرجو والمسئول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

(١) طبعت الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م بدار ابن خزيمة.



ترجمة مختصرة للإمام

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نسبه:

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تَمِيم.

مولده:

ولد في بلدة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفِّيت أمُّهُ وله أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين، فتربى يتيماً وكَفَلَتْه زوجة أبيه رحمهما الله، وأَحَبَّتْه أكثر من أولادها وَرَعَتْه حتى شَبَّ، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر فقام على رعايته ونشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حَدَاثَة سِنِّه بذكائه ورغبته الشَّدِيدة في العلوم، فقرأ القرآن وحَفِظَه عن ظهْر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة.

طلبه للعلم:

ثم اشتغل في التَّعلُّم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتى نال الحظَّ الأوفر مِنْ كل فنّ مِنْ فنون العلم، ولمَّا بلغ من العمر ثلاثًا

وعشرين سنة جلس للتَّدريس فكان يتعلَّم ويُعَلِّم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعًا إليه، ومعوَّل جميع الطلبة في التعلم عليه.

بعض مشايخه:

أخذ العلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن:

١- الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أول مَنْ قرأ عليه وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدَّثُ عن روعه ومحبَّته للفقراء مع حاجته ومواساتهم، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده رَحِمَهُ اللَّهُ، توفي في الكويت عام ١٣٣٨ هـ.

٢- الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عنيزة عام ١٣٤٣ هـ.

٣- الشيخ صالح بن عثمان القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه وأصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام ١٣٥١هـ.

٤- الشيخ عبد الله بن عايض الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- الشيخ صعب بن عبد الله التويجري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الشيخ علي السناني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧- الشيخ علي الناصر أبو واداي رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عنه



الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك.

٨- الشيخ محمد ابن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع رَحِمَهُ اللَّهُ (مستشار المعارف في المملكة العربية السعودية) في ذلك الوقت، وقد قرأ عليه في عنيزة، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام١٣٨٥هـ

٩- الشيخ محمد الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير) لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس قرأ عليه في التفسير والحديث وعلوم العربية، كالنحو والصرف ونحوهما.

أخلاقه:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعاً للصَّغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى، وكثيراً ما يحلّ المشاكل برضاء الطرفين في الصُّلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات، وكان على جانب كبير مِنَ الأدب والعِفَّة والنَّزَاهة والحَزْم في كل أعماله، وكان مِنْ أَحسَن النَّاس

تعليماً وأبلغهم تفهيماً، مرتباً لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المُحَصِّلِين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون، وكل من حفظه أعطى الجعل ولا يحرم منه أحد.

ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويُرَجِّحُ ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحَكَم، ولا يَمَلُّ التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال لأنهم يتلذَّذون مِنْ مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير.

صفاته الخِلْقِيَّة:

كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون مُشْرَبًا بحُمْرة، مُدَوَّر الوجه طلقه، كثيف اللحية بيضاء، يتلألأ وجهه كأنه فضة، عليه نور في غاية الحسن وصفاوة اللون، نَيِّر لا يُرى إلا مبتسمًا أو بادية أَسَارِير وجهه.

مكانته العلمية:

كان ذا معرفة تامَّة في الفقه، أصوله وفروعه.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وحصَلَ له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي، بل يُرَجِّحُ ما ترجَّحَ عنده بالدليل الشرعي، وله اليد الطُولى في التفسير، إذ قرأ عدَّة تفاسير وبرع فيها،

وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات، فسره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسِّره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة، حتى أنَّ سامعه يَوَدُّ أَنْ لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في العلم، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه.

تلاميذته:

فأما تلاميذه فكثيرون نذكر منهم:

١- الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الذي خَلَفَه في التَّدريس والإفتاء في عنيزة، وهو إمام الجامع الكبير في عنيزة والمدرس في جامعة الإمام بالقصيم، صاحب التصانيف المفيدة والشروح النافعة.

٢- الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عضو الهيئة القضائية العليا في وزارة العدل السعودية.

٣- الشيخ علي بن حمد الصاحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان الشيخ قد وكل إليه تدريس صغار الطلبة هو والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع في حدود ١٣٦٠هـ.

٤- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن صالح البسام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عضو هيئة التمييز بمكة المكرمة.

٥- الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب الكتب النافعة.



وغيرهم كثير.

مؤلفاته:

١- «تفسير القرآن الكريم» المسمى «تيسير الكريم في تفسير كلام المنَّان» في خمس مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ هـ وهو مطبوع.

٢- «حاشية على الفقه» استدراكـًا على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي ولم تطبع.

٣- «إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب» رتبه على السؤال والجواب، طُبع مرارا، وقد أعيد طبعه أيضا تحت عنوان« الإرشاد إلى معرفة الأحكام».

٤- «الدُرَّة المختصرة في محاسن الإسلام»، طُبع في مطبعة أنصار السُنَّة عام ١٣٦٦هـ.

٥- «الخُطَب العصرية القيِّمة»، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع «الدرَّة المختصرة» في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجانـًا.

٦- «القواعد الحسان لتفسير القرآن» مطبوع.

٧- «تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله»، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد افندي



نصيف» عام ١٣٦٦هـ.

٨- «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين» مطبوع.

٩- «توضيح الكافية الشافية » وهو كالشرح لنونية الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مطبوع.

١٠- «وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني»، مطبوع.

١١- «القول السديد في مقاصد التوحيد » طبع.

١٢- «مختصر في أصول الفقه» لم يطبع.

١٣- «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن » طبع.

«الرياض الناضرة » طبع.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيرها ويجيب عليها، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب.

وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئًا كثيراً.

غايته من التصنيف:

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا ينال منها عرضًا زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، **بل يوزِّعها مجانًا ليعم النَّفع بها،** فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

وفاته:

وبعد عمر مبارك دام قرابة ٦٩ عاماً في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربِّه فجر يوم الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة[١].

(١) استفدت هذه الترجمة من مقدمة «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، وانظر: ترجمة حافلة لشيخنا
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه: «الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة» (ص٢١).



المتن [1]

المسألة التاسعة: في الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب.

ماهي الأسباب والأعمال التي يضاعف ثوابها؟

الجواب، وبالله التوفيق:

أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عشر أمثالها، فهذا لا بد منه في كل عمل صالح، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٦٠].

وأما المضاعفة بزيادة عن ذلك - وهي مراد السائل - فلها أسباب؛ إما متعلقة:

١- بالعامل.

٢- أو بالعمل نفسه.

٣- أو بزمانه.

٤- أو بمكانه.

---

(١) «الفتاوى السعدية» (ص ٤٣).



٥- وآثاره.

فمن أهم أسباب المضاعفة، إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة، وقصد العبد به رضا ربه وثوابه، وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله، بأن يكون عمله صادرًا عن إيمان بالله ورسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه، كما ورد في عدة آيات وأحاديث هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٢٧]؛ أي: المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة، وكما في قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1]، و«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2].

وغيرها من النصوص، والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص، ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة، إذا تركها خالصًا من قلبه، ولم يكن لتركها من

(١) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).



الدواعي غير الإخلاص، وقصة أصحاب الغار[١] شاهدة بذلك.

ومن أسباب المضاعفة - وهو أصل وأساس لما تقدم - صحة العقيدة، وقوة الايمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير، فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله، تضاعف أعمالهم مضاعفة كبيرة لا يحصل مثلها، ولا قريب منها، لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة، ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت به عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم قعدت بهم عقائدهم.

ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلوم الفرق بين من يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالا متأولا.

ومن أسباب مضاعفة العمل: أن يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين له وقع وأثر وغناء، ونفع كبير، وذلك كالجهاد في سبيل الله؛ الجهاد البدني، والمالي والقولي، ومجادلة المنحرفين، كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوك طرق العلم والتعليم، فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد

(١) رواه البخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣).

الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه، فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل له به طريقًا إلى الجنة[١]، ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها، ويتسلسل إحسانها، كما ورد في «الصحيح»: «إِذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» .[٢]

ومن الأعمال المضاعفة، العمل الذي قام به العبد، شاركه فيه غيره، فهذا أيضا يضاعف بحسب من شاركه، ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل، فهذا بلا ريب يزيد أضعافًا مضاعفةً على عمل إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها، ولهذا فضل الفقهاء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

ومن الأعمال المضاعفة: إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين.

فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والطريق التي يسلكها الى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق العلم الموصلة الى رضا ربه» «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٣).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أزيل ما يضرها كان الأجر عظيما؛ وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش، فغفر لها بغيها، شاهدة بذلك[1].

ومن أسباب المضاعفة: أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مصر على شيء منها، فإن أعمال هذا مضاعفة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ...»[2] الحديث.

ومن أسبابها: رفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام، فإن الله تعالى شكور حليم؛ لهذا كان نساء النبي أجرهن مضاعفًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣١]، وكذلك العالم الرباني، وهو العالم العامل المعلم، تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله.

كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب، كان أعظم من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرز، ولما يجب من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

ومن الأسباب: الصدقة من الكسب الطيب، كما وردت بذلك النصوص.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

ومنها: شرف الزمان، كرمضان وعشر ذي الحجة ونحوها.

ومنها: شرف المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادة في الأوقات التي حث الشارع على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها، وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكمّل - مع الإخلاص - للأعمال، المنمّي لثوابها عند الله.

ومن أسباب المضاعفة: القيام بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية، فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر، كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفة، وأمثلة هذا كثيرة جدا، ولكن هذا ضابطها.

ومن أهم ما يضاعف فيه العمل، الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل، فكلما كانت هذه الأمور أقوى، كان الثواب أكثر، ولهذا ورد في الحديث: «لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا»، فالصلاة ونحوها وإن كانت تجزئ إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة، إلا أن كمال القبول، وكمال الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان بحسب حضور القلب في العبادة، ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل، فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار، وبالله التوفيق.

ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سببا لمضاعفة الثواب، فإن

من السبعة الذين يضلهم الله في ظله «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»[١] ومنهم «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَا»، كما أن إعلانها قد يكون سببا للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من غيره.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون، المقربون في جنات النعيم.



(١) رواه البخاري (٦٦٠)، وسلم (١٠٣١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ماهي الأسباب والأعمال التي يضاعف ثوابها؟

الجواب، وبالله التوفيق:

أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عشر أمثالها، فهذا لا بد منه في كل عمل صالح، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٦٠].

وأما المضاعفة بزيادة عن ذلك - وهي مراد السائل - فلها أسباب؛ إما متعلقة:

١- بالعامل.

٢- أو بالعمل نفسه.

٣- أو بزمانه.

٤- أو بمكانه.

٥- وآثاره].

الشرح

ذكر الإمام عبد الرحمن بن السعدي رحمه الله تعالى أولًا: نص السؤال المطروح ألا وهو: ما هي الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب؟

أي: ما هي الأسباب التي يُطلب من العامل أن يبذلها وأن يقوم بها؛ لتكون سببًا لمضاعفة أجره على عمله؟ لأن الأعمال الصالحات تتضاعف أجورها

ويزيد ثوابها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بناءً على أسبابٍ وأمورٍ يوفِّق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العاملين للقيام بها، فما هي الأسباب والأعمال التي يُطلب من العامل أن يقوم بها لتكون سببًا في مضاعفة الأجر؟

وكما قدمت.. هذا الأمر حقيقٌ بالعناية به فقهًا وبصيرة؛ لأنك إذا وفقت لفهم هذا الأمر والعناية بفهمه تكون صورة العمل هي هي نفسها، لكن بقيامك بهذه الأسباب وعنايتك بها تتضاعف الأجور مضاعفةً لا حدَّ لها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُضاعف لمن يشاء، فهذا جانب من الفقه مهم جدًا للغاية.

وها أنت ترى أرباب الدنيا وتجارها كيف يبحثون بحثًا دقيقًا عن الأسباب التي يترتب عليها مضاعفة الأرباح، وتحصيل المكاسب الكبيرة الطائلة، يُعتنى بهذا عنايةً دقيقة، وتُجّار الآخرة الذين يطمعون بالأجور المضاعفة والثواب الجزيل والأرباح الكبيرة يُهمهم جدًا معرفة هذه الأسباب والأعمال التي إذا وُفِّق لها العامل ضُعف له الأجر أضعافًا كثيرة، وحصَّل عليه أجورًا عظيمة.

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا السؤال جوابًا وافيًا، فقال: (**الجواب: وبالله التوفيق**).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بالله التوفيق**)؛ نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود، من الآية:٨٨]؛ فالتوفيق بيد الله جَلَّ وَعَلَا لا شريك له، واستحضار هذا الأمر بين يدي مسائل العلم وأمور العمل مهم للغاية.

(**وبالله التوفيق**)؛ أي: توفيقي بيد الله عَزَّوَجَلَّ، إن كان علمًا فلن تنال صائبه، ولن توفق لسديده إلا بتوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ ومَنِّه، وإن كان عملًا لن توفق لصالحه ومقبوله إلا بتوفيقٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالتوفيق بيد الله عَزَّوَجَلَّ لا شريك له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عشر أمثالها**)؛ فهذا لا بد منه في كل عملٍ صالح؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كتب الحسنات؛ الحسنة بعشر أمثالها، كل عمل صالح يقوم به العبد له عن كل عمل عشر حسنات، مثل ما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قراءة القرآن: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[١]، فكل عملٍ صالحٍ قلَّ أو كثر الحسنة بعشر أمثالها.

ومن شواهد ذلكم قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٦٠].

وبيّن رحمه الله تعالى أن هذا ليس مقصود السائل، وهو أمرٌ معروف أن العمل قلَّ أو كثر، العمل الصالح الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة لا يجزى إلا بمثلها، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى تفضل على العامل المُحسن المطيع لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن الحسنة بعشر أمثالها، لكن يقول: إن هذا ليس هو مراد السائل، وليس المراد في موضع البحث والبيان هنا.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤١٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما المضاعفة بزيادةٍ عن ذلك)**؛ أي: عن العشر حسنات، الزيادة بكم؟ جاء في النصوص إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، فهذه المضاعفات التي تكون للعامل على عمله ما سببها؟ ما الأعمال التي أوصلت إليها؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أما المضاعفة بزيادة عن ذلك)**؛ هذا يدل عليه دلائل؛ منها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في [سورة البقرة]: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦١]، وأيضًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٠]، فباب الحسنات هو باب مضاعفة، وزيادة في الأجور، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يضاعف لمن يشاء، فحري بالعامل أن يُعنى بفقه هذا الباب؛ باب مضاعفة الحسنات ومضاعفة الأجور.

جاء في «الصحيحين» عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»،[1] قوله: «إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»؛

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

هذا له أسباب، ووفق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العاملين إلى القيام بها والإتيان بها فحصلوا هذا التضعيف في الأجور.

كذلكم ما جاء في «الصحيحين» عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»،[١] والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وجاء في «صحيح مسلم» عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن رجلًا جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناقة مخطومة، قال: هذه في سبيل الله، قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[٢]؛ فهذه مضاعفة، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يعتني هنا في هذه المسألة ببيان الأسباب والأعمال التي تكون بها هذه المضاعفة، وهو نيل هذا التضعيف العظيم في الأجور.

قال: **(وأما المضاعفة بزيادةٍ عن ذلك - وهي مراد السائل - فلها أسباب؛ إما متعلقة بالعامل، أو بالعمل نفسه، أو بزمانه، أو بمكانه وآثاره)**؛ فهذه الآن خمسة أمور تتعلق بها المضاعفة.

الأمر الأول: لها تعلق بالعامل؛ العامل من حيث إخلاصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عمله، وسيأتي بسط ذلك وبيانه عند المصنف رحمه الله تعالى، ومن حيث

(١) رواه مسلم (١١٥١).

(٢) رواه مسلم (١٨٩٢).



متابعته للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، من حيث صدقه مع الله جَلَّ وَعَلَا واجتماع إرادته وهمته على هذا العمل متقربًا به إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فالمضاعفة تكون أولًا من جهة العامل.

الأمر الثاني: تكون من جهة العمل نفسه؛ فهناك أعمال معينة جاءت النصوص دالةً على أن أجورها مضاعفة، وأن ثوابها جزيل، ومن ذلكم ما ذكره أهل العلم في باب الأذكار بالذكر المضعَّف؛ أي: المضعف أجره وثوابه عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، انظر إلى التضعيف في قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[(١)].

أيضًا ما جاء في الحديث لما مرَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمرأة التي جلست في مصلاها تُسبح وتذكر الله قال: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[(٢)]؛ فهذا ذكر مضعف، معنى مضعف، أي: أن ألفاظه قليلة وثوابه جزيل، وثوابه عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مضعف، فهذه كانت تذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في مصلاها، وقال بعدها أربع كلمات لو وزنت بما قالته تلك المدة لوزنتهن.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

فإذًا التضعيف من أسبابه ما يكون عائدًا إلى العمل نفسه؛ حيث دلت النصوص على أنه مضعف، وأن ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مضعف.

الأمر الثالث: كذلكم من الأمور التي يتعلق بها التضعيف الزمان؛ أي الزمان الفاضل، الزمان الشريف؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خص أزمنة بمزيد فضل، وميزها بمزيد بركة، ومن ذلكم شهر رمضان الكريم، والموسم العظيم؛ فهو موسم من مواسم التضعيف، وفيه ليلة واحدة، - انظر التضعيف المتعلق بالزمان - ليلة واحدة خيرٌ من ألف شهر، ألف شهر تُعادل بحساب السنوات أكثر من ثمانين سنة، ليلة واحدة أجرها وأجر العمل فيها خيرٌ من أكثر من ثمانين سنة، هذا تضعيف عائد إلى الزمان، في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ»[1]؛ أي: العشر الأول من شهر ذي الحجة.

فإذًا هناك تضعيف عائدٌ إلى الزمان، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق ما يشاء ويختار، ومن ذلكم أنه خصَّ بعض الأزمنة بمزيد فضله، وعظيم منه وجزيل ثوابه، فكان العمل فيها مضعفًا، والأجر فيها جزيلًا، فليلة القدر خيرُ الليالي، ويوم عرفة خير الأيام، وفي ليلة القدر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها منح وعطايا ومنن عظام يمن بها على من يشاء من عباده، وأيضًا في يوم عرفة، ذلك اليوم المبارك، وفي تلك العشية المباركة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها منن عظام وعطايا جزال؛ فهو أكثر أيام الله

---

(١) رواه البخاري (٩٦٩).



سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التي يكون له فيها عتقاء من النار، فإذًا هناك تفضيل أو تضعيف في الثواب والأجر عائدٌ إلى الزمان.

الأمر الرابع: وهناك تضعيف عائدٌ إلى المكان؛ مثل قول نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»[1]، إذًا هذا تضعيف في الثواب عائدٌ إلى المكان، فالصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف تضعيف عظيم، والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة، فهذا تضعيف عائد إلى المكان.

والأمر الخامس: مما ذكره رحمه الله تعالى التضعيف العائد إلى الأثر؛ أي: آثار العمل، وما يثمره العمل من نتائج عظيمة ومباركة، فهذه أيضًا فيها تضعيفٌ لا حد له، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول في [سورة يس]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس، من الآية:١٢]؛ فآثار العمل تُكتب؛ حسنة كانت تلك الآثار أم سيئة، فإذا وفق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العامل للقيام بأعمالٍ لها آثار؛ فإن هذه الآثار كلما امتدت وكلما توالت تضعَّف أجره وثوابه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحسب تلك الآثار.

ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ

---

(١) رواه النسائي (٢٨٩٧)، وابن ماجه (١٤٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٣٨).

مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[١]، وقال: «الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[٢]، وهذا يُبين المكانة العظيمة لنشر العلم، وبيانه، وإيصاله للناس، وإفادتهم به، فكم في ذلكم من الخير؟! وكم في ذلكم من الأجر والثواب؟! يناله العالم في حياته ويناله بعد وفاته، كلما استفاد مستفيد، أو تعلم متعلمٌ، أو تفقه متفقٌ على كتبه، ومؤلفاته، ورسائله، ونصائحه، وبيانه، وتوجيهاته.

وقديمًا كانوا يقولون: (الكتاب ولدك المخلد)؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ:»، وذكر منها: «وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ»[٣]، فقالوا: [الكتاب ولدك المخلد]؛ وفي زماننا هذا تيسرت وسائل حفظ الصوت فأصبح العالم يموت ويبقى صوته، الإمام ابن باز، والإمام ابن عثيمين، والإمام الألباني رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيرهم من أهل العلم أصواتهم موجودة، فيها علومهم وبيانهم ونصحهم وتوجيههم ولا يزال طلبة العلم يستمعون إلى علومهم بأصواتهم ويستفيدون منها، فهذا النفع بإيصال العلم إلى الناس، سواء ببيان العالم أو بإيصال علم العالم إلى الآخرين، قد لا يكون الإنسان عالمًا، لكن يوصل علم العالم إلى الآخرين إما بإيصال كتابٍ، أو شريطٍ نافعٍ، أو دلالة طالب علم إلى مجلس علم، كم في هذا من الآثار المباركة؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٨٥).

(٣) رواه مسلم (١٦٣١).



أحيانًا يوفق شخص إلى أن يحث شخصًا على طلب العلم، يرى صغيرًا فيحثه على العلم ويرغبه في العلم؛ فينشرح صدره ويُقبل على العلم؛ فيُكتب لهذا الذي دله على هذا الخير أجره، والله واسع عليم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والدال على الخير كفاعله، فإذًا هذا باب عظيم جدًا من مضاعفة الأجور يغفل عنه الإنسان، والنفع المتعدي أعظم من النفع القاصر، عندما يفتح للناس مجالات أو أبوابًا سواء في مجال العلم، أو مجال أيضًا نفقة الأموال، قد يكون شخص لا مال عنده لكنه يحدث صاحب مال بطريقة سديدة جيدة في نفقة هذا المال وبذله؛ فيعمل بها فيكتب لهذا الفقير والمعدم أجر ذلك المنفق؛ لأن الدال على الخير كفاعله، والله واسع عليم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فهذا باب عظيم جدًا، حقيقة يجدر بالمسلم أن يعتني به، والرجل قد يقول الكلمة لا يلقي لها بالًا يرتفع بها عند الله عالي الدرجات ورفيع المنازل، وهذا أيضًا من هذا الباب؛ باب المضاعف بالكلمة الصادقة الناصح فيها لعباد الله التي تكون نابعةً عن صدق، وعن إخلاص، وعن حرص على نفع العباد، إذًا هذا باب من باب المضاعفة وهو باب الآثار، ويسميه بعض العلماء: عمر الإنسان الثاني.

الإنسان له عمران في أعماله:

١- وقت حياته الأعمال التي يقدمها.

٢- بعد مماته آثار أعماله.

والموفق من عباد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من تكون همته في عمله ليست قاصرة على

أجرٍ يحصله على عمله في وقته، بل تطمح نفسه إلى أعمالٍ وأجورٍ يحصلها بعد وفاته، وهذا هو التخطيط النافع المفيد غاية الفائدة للعبد أن يخطط لشيء يحصل أجوره وثوابه إلى ما لا حد له ولا عد.

ومن عجائب الأمر أن من الناس من يمشي على قدميه في الأرض صحيحًا معافى، ويمر عليه الأيام بل والشهور والسنوات وربما لا يُحصل أجرًا بل يكتسب إثمًا ووزرًا، وآخرون تحت التراب توفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من سنواتٍ طويلة، ومن أعمارٍ مديدة، وهم كل يوم يحصلون أجورًا وثوابًا، وهذا يمشي على قدميه صحيحًا معافى، ويمر عليه اليوم واليومان والثلاثة، والشهر والشهران والثلاثة، والسنة والسنتان والثلاثة ولا يحصل أجرًا بل يُحصل - عياذًا بالله - وزرًا وإثمًا، وذاك ميتٌ في قبره والأجور عليه تتوالى كل يوم.

وهذا وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حياته إلى العناية بهذا الجانب الذي هو باب تضعيف الأجر الذي يتعلق بآثار العمل، وهذا جانب حقيقة ينبغي على العبد أن يتفقه فيه، وأن يحرص على أن يجعل له نصيبًا؛ لأنه سيأتي عليه يوم وتنتهي مدته في هذه الحياة، فيحرص على أن مدته تنتهي في هذه الحياة ويبقى الأجر، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»[1]، فإذًا هذه مجالات؛ مجالات خمسة للتضعيف؛ تضعيف الثواب:

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

الأول: يتعلق بالعامل.

والثاني: بالعمل نفسه.

والثالث: بزمانه.

والرابع: بمكانه.

والخامس: بآثاره.

وبعد هذا الإجمال شرع رحمه الله تعالى بالتفصيل تقعيدًا لهذا الأمر وتأصيلًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فمن أهم أسباب المضاعفة، إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة، وقصد العبد به رضا ربه وثوابه، وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله، بأن يكون عمله صادرًا عن إيمان بالله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه، كما ورد في عدة آيات وأحاديث هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٢٧]؛ **أي: المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة، وكما في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1]، و«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا**

---

(١) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).



تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». [١]

وغيرها من النصوص، والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص، ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة، إذا تركها خالصًا من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غير الإخلاص، وقصة أصحاب الغار [٢] شاهدة بذلك».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن أهم أسباب المضاعفة إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ)؛ هذا من أهم الأسباب للمضاعفة في العمل:

أن يكون العامل في عمله مخلصًا لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ متبعًا للرسول الكريم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل إن هذين الأمرين شرطا قبول الأعمال، ولا يقبل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عمل عاملٍ قل أو كثر إلا إذا كان قائمًا على هذين الشرطين العظيمين: الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ [٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٢) انظر: البخاري (٢٣٣٣، ٣٤٦٥، ٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يكون العبد متحققا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلا بأصلين =

وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١١٠]، أي: ليكن في عمله متبعًا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، فالعبرة بالأعمال ليس بمجرد كثرتها وتوافرها وتعددها، وإنما العبرة بالأعمال بحسنها؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود، من الآية:٧]، ولم يقل: أكثر عملًا؛ لأن العبرة بحسن العمل، وفي الدعاء الذي علمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحبه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يدعه دبر كل صلاة، قال: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»،[١] ولم يقل: وكثرة عبادتك؛ لأن العبرة بالحسن، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود، من الآية:٧]، وفي معنى هذه الآية الكريمة قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَم يكن صوابًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»[٢].

عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثاني: الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» «مدارج السالكين» (١/ ٨٣).

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص:٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

فالإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيه بركة عظيمة، وقليلٌ من العمل بإخلاص للمعبود خيرٌ من كثير بلا إخلاص! فالإخلاص ينمي العمل ويضاعفه، ويكون سببًا لبركته وعظم ثوابه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا كما سيأتي عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**تتضاعف الأجور وإن كانت صورة العمل واحدة بحسب ما قام في قلوب أصحابها من إخلاص لله**)؛ حتى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، قال ﷺ: «أسعدُ الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[1]، الناس يتفاوتون في لا إله إلا الله عندما يقولونها، وتتفاوت منازلهم فيها، وهذا يُبين لك حديث البطاقة الذي قد يشكل معناه على بعض الناس، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟»، بطاقة واحدة فيها لا إله إلا الله، وسجلات عددها تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل مد البصر كلها ذنوب، «فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ

(١) رواه البخاري (٩٩).

فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»[(١)]، وهذا من الدلائل أن الميزان الذي يُنصب يوم القيامة له كفتان، كفة توضع فيها الحسنات، وكفة توضع فيها السيئات، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٧]؛ قال: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»، ولا يثقل مع اسم الله شيء، ثقلت البطاقة التي فيها لا إله إلا الله، وطاشت السجلات، ما سبب هذا الثقل؟ مع أنه دلت النصوص الأخرى أن هناك ممن يقول: لا إله إلا الله وهو من أهل التوحيد يدخل النار بسبب ذنوبه، ويُعذب في النار وقتًا وأمدًا بسبب ذنوبه، وهذا عليه شواهد ودلائل كثيرة جدًا، ومنها قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الذي في «الصحيحين»: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[(٢)]، يخرج من النار مَنْ قال: لا إله إلا الله؛ إذًا هناك من أهل لا إله إلا الله، من أهل التوحيد يدخلون النار بسبب الذنوب، وصاحب هذه البطاقة ثقلت بطاقته، إذًا هذا له سبب، هذا الثقل له سبب، يدل على أن الأعمال تتضاعف مضاعفةً عجيبة لا حد لها بحسب ما قام بقلب العامل، ولهذا يتفاوت الناس تفاوتًا عظيمًا حتى في قول لا إله إلا الله،

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وقال الألباني: «صحيح الجامع» (٨٠٩٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

هناك من يقولها مخلصًا صادقًا من قلبه، مستوفيًا شروطها، هناك من يقولها ويأتي بأمور تنقص كمالها، وهناك من يقولها ويأتي بأمور تنقضها من أصلها، وهناك من يقولها بلسانه ولم يقم في قلبه شيء من حقائقها، كما هو الشاهد في حال المنافقين الذين يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله بألسنتهم، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:١]، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤]؛ قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ هذا باللسان ولم يقم في القلب شيء من حقائق الإيمان، فإذًا باب التضعيف إلى أضعاف لا حد لها عائدٌ إلى ما قام في القلوب، فتكون صورة العمل واحدة، الركوع هو الركوع، والسجود هو السجود، ومدة العمل هي مدة العمل، لكن بين العملين تفاوتٌ عظيم بحسب ما قام في القلب من إخلاصٍ وصدقٍ وغير ذلكم من الحقائق؛ حقائق الإيمان التي تكون في قلوب المؤمنين.

كذلكم جانب المتابعة للرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحرص على ترسم خطاه، والسير على نهجه، قليل من العمل يقوم به العبد موافقًا به السنة، خير من كثير من العمل لا أصله له ولا أساس في شرع الله، ولهذا قال السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ قديمًا:

(اقْتِصَادٌ فِي سُنَةٍ خَيْرٌ مِنِ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ)(١)، اقتصاد في سنة: تأتي بعمل مقتصد قليل ويسير توافق فيه سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرٌ من ليالي وأيامٍ يمضيها الإنسان في أعمال لا أصل لها في هديه -صلوات الله وسلامه عليه-، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١٠٤]؛ إما لفقد الإخلاص أو لفقد الاتباع، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، فإذًا العمل يتفاوت قبولًا وردًا، وأيضًا يتفاوت تضعيفًا وثوابًا وأجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسب التوفيق للاتباع، والاقتداء والاهتداء بهدي الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة)**؛ هذا قيد الاتباع للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إذا كان من الأعمال المشروعة، أي: ثبت به هدي عن نبينا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -.

(وقصد العبد به رضى ربه وثوابه)؛ أي أخلص فيه، وابتغى بالعمل وجه الله، **(وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل)**؛ لماذا يقوم بهذا العمل؟ ما الداعي له؟ ما السبب الذي دفعه لقيامه؟ طلب ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: يحقق بأن يجعل هذا هو الداعي إلى العمل، يخرج من بيته حين يخرج وهو

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٠٧) عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

ليس له قصدٌ وليس له مراد إلا هذا يطلب ثواب الله، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٩]، ﴿أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ ؛ هذا قيد إخلاص، ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ؛ هذا قيد الاتباع، السعي: سعي الآخرة هو الذي جاء به نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والأعمال التي ثبتت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أراد الآخرة مخلصًا.

﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ؛ متبعا مقتديًا مهتديًا بهدي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأقام ذلك على الإيمان. ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ ؛ أي: أولئك هم الذين يشكر الله عملهم، ويقبل طاعاتهم، ويثيبهم عليها عظيم الثواب.

قال: (**بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله**)؛ تأمل! يجعل الإخلاص والموافقة في هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسير على منهاجه هو الداعي للعمل، ويجعل ذلك هو الغاية لعمله؛ فيكون مبدأ العمل ومنتهاه وكل ما يكون أثناء العمل يبتغي به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتبع فيه الرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

قال: (**بأن يكون عمله صادرًا عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشرع، وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه**)؛ تأمل هذه الثلاث التي ذكرها فإنها مجتمعة في [آية الإسراء] التي مر ذكرها آنفًا.

هذه الثلاث مجتمعة في قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٩]؛ أي: أن

السعي يكون مشكورًا مرضيًا مثابًا عليه عند الله متقبلًا إذا قام على هذه الأمور الثلاث:

- أن يكون عن إيمان بالله ورسوله.
- وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾.
- وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

قال: (**كما ورد في عدة آيات وأحاديث هذا المعنى، كقوله تعالى**: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٢٧])؛ قال مبينًا معنى الآية: (**أي: المتقين لله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة**)؛ وذكر رحمه الله تعالى في كتابه التفسير عند تفسيره لهذه الآية: أن معنى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ في المراد بالمتقين الذين يتقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهم أعمالهم، أي الذين اتقوه في العمل، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين اتقوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العمل[1].

وكيف تكون تقواه في العمل؟ بأن يقع خالصًا لله، وأن يكون موافقًا لهدي رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه حقيقة تقوى الله في العمل، أن يكون خالصًا لله؛ لا يريد به رياءً ولا سمعة، ولا حطام دنيا، ولا غير ذلك من المقاصد، بل يريد به

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ» «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٢٢٨).

وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وثوابه وأجره، فهذا من تحقيق تقوى الله في العمل، ومن تحقيق تقوى الله في العمل أن يكون العمل موافقًا للهدي مطابقًا لسنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فمن اتقى الله في عمله فجاء العمل خالصًا للمعبود، موافقًا لهدي الرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تقبل الله منه، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقد قال طلق بن حبيب رحمه الله تعالى في تعريفه للتقوى، وهو كما قال غير واحدٍ من أهل العلم أجمعوا تعريفًا قيل في التقوى، قال رَحِمَهُٱللَّهُ في التقوى: (أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنْ نُورِ اللهِ رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعَاصِي اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ خَوْفَ عِقَابِ اللهِ) [١]، فنبه على الأمرين الذين تتحقق بهما التقوى في العمل: المتابعة في قوله: (على نور)، والإخلاص: (رجاء ثواب الله، وخوف عقاب الله)، هو يعمل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يرجو ثوابه ويخاف عقابه، فهذه حقيقة التقوى؛ تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأعمال الذي لا تقبل الأعمال إلا به، أن تكون الأعمال خالصة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن تكون صوابًا على هدي الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -.

فإذا افتقد العمل الإخلاص، أو افتقد المتابعة؛ لم يُقبل أو افتقدهما معًا.

وفي هذا يُعلم أن أقسام الناس في هذا الباب أربعة:

القسم الأول: أهل الإخلاص والمتابعة، وهم وحدهم الذين تُقبل أعمالهم.

القسم الثاني: إخلاص بلا متابعة.

---

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧٦٦).

القسم الثالث: متابعة بلا إخلاص.

القسم الرابع: لا إخلاص ولا متابعة.

والثلاثة الأخيرون كلهم لا تقبل أعمالهم.

من أخلص ولم يتابع لم يقبل، لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، ومن تابع ولم يخلص لم يقبل؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2]، ومن لم يخلص ولم يتابع لم يقبل، فلا يقبل إلا عمل المتقين، وهم الذين أخلصوا دينهم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واتبعوا فيه هدي الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه وبركاته عليه -.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دليلًا آخر وهو يتعلق بالصيام - بلغنا الله شهره، ووفقنا لصيامه إيمانًا واحتسابًا -، قال: **(وكما في قوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، «وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، «وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»)**؛ فهذه ثلاثة أمور فيها غفران ما تقدم من الذنوب في موسم رمضان المبارك؛ قيامه إيمانًا واحتسابًا، صيامه إيمانًا واحتسابًا، قيام ليلة القدر

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

إيمانًا واحتسابًا، في كل ذلكم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[١]، لكن قيد الصيام والقيام بهذا القيد «إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»[٢]؛ فإذا فُقد هذا القيد، ولم يتوفر هذا القيد، ولم يوجد هذا القيد، كيف تكون حال الصائم؟ وكيف تكون حال القائم؟ «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَر»[٣]، فإذًا هذا قيدٌ لا بد منه في العمل، وإذا وُجد تقبل العمل، وإذا وجد ضُعِّف الأجر والثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)؛ وهذا الباب (إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا) أين مكانه؟ (إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا) هذه الجملة أين مكانها في العبد؟ في القلب.

مكانها في القلب ليست في صورة العمل الظاهرة، قيام رمضان إيمانًا واحتسابًا الإيمان والاحتساب مكانه القلب، فعاد القبول والتضعيف والثواب الجزيل إلى

---

(١) قال شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ دَلَّ.. الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمْعَةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا: غُفِرَ لَهُ أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنْ السُّنَنِ خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهَذَا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ» «مَجْمُوعُ الفَتَاوَى» (١٠/ ٦٥٦).

(٢) قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد بالإيمان: الاعتقاد بحق فرضية صومه، وبالاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى» «فتح الباري» (٤/ ١١٥).

(٣) رواه ابن ماجه (١٦٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٣٧١).

ما قام في القلب من إخلاص، ما قام من صدق، ما قام في القلب من احتساب، ما وُجد في القلب من إيمان، فهذا قيد يترتب عليه التضعيف في الأعمال.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**وغيرها من النصوص**)؛ أي: الدالة على أن الأعمال لا تتقبل إلا بتقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها؛ بأن تكون خالصةً لله موافقةً لهدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قائمةً على الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، واحتساب أجره وثوابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص**)؛ وهذه قاعدة في هذا الباب، ورسالته هذه تضمنت قواعد مفيدة جدًا ذكرها في مواضع من هذه الرسالة من بينها هذه القاعدة: (**القليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص**).

وهذا فيه التنبيه منه رحمه الله تعالى إلى أن أهل الإخلاص يتفاوتون أيضًا في إخلاصهم، كلٌّ ينصب بأنه مخلص، لكن درجة الإخلاص وقوته وتمكنه في القلب، ورسوخه وثباته يتفاوت فيه أهله تفاوتًا عظيمًا، ولا يمكن أن يكون إخلاص المقربين كإخلاص من دونهم من آحاد الناس، والعمل لا يقبل إلا بالإخلاص، لكن يتفاوت أهله فيه تفاوتًا عظيمًا، ولهذا قال: (**والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص**)؛ إذًا صورة العمل الظاهرة قد تكون واحدة، هذه مثلًا الصلاة ركوعها واحد، سجودها واحد، وأعمالها واحدة، كل يصلي خلف إمامٍ واحد،

لكن هذا المصلي وذاك المصلي يتفاوتون في الأجر تفاوتًا عظيمًا بحسب ما قام في قلوبهم من الإخلاص وقوته.

قال: **(ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم في القلوب من الإيمان والإخلاص)**؛ فما يقوم في القلوب من إخلاص للمعبود وإيمان به تَبَارَكَ وَتَعَالَى واحتسابًا لأجره وثوابه له أثره العظيم، وتأثيره البالغ في رفعة درجات العامل، وعظم ثوابه عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم تحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جانب آخر يتعلق بالإخلاص، وهو الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في ترك المحرمات، وترك ما تشتهيه النفوس مما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويسخطه جَلَّ وَعَلَا.

ومن المعلوم أن الناس في هذا الباب يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في تركهم للمعاصي؛ بعضهم يترك المعاصي احتفاظًا على جسمه، يترك بعض المعاصي حفاظًا على جسمه أو نحو ذلك، ومنهم من يترك المعصية لا يتركها إلا لأجل الله، ولم يقم في قلبه حين تركها إلا لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل قصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار.

فهذه قاعدةً شريفةً في الباب ألا وهي: **(أن الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم في القلوب من الإيمان والإخلاص)**؛ أي: أن صورة العمل الظاهرة تكون واحدة، صلاة وصلاة متساوية في الركوع والسجود والتلاوة؛ مثل المصلين خلف إمام واحد، يكبرون سويًا، ويسلمون سويًا؛ فعملهم الظاهر واحد، لكن الفرق بين هذا وذاك كالفرق بين السماء والأرض، والسبب عائد

لما قام في القلب من إيمانٍ وإخلاصٍ وصدقٍ مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في تحقيق العبودية وتكميلها.

ثم بيَّن رَحِمَهُٱللَّهُ تحت هذه القاعدة مكانة الإخلاص وعظيم أثره في تضعيف العمل.

قال: (**ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصًا من قلبه**)؛ وهو رحمه الله تعالى ينبه هنا إلى أن الترك يعد عملًا صالحًا، ترك الحرام وتجنب الآثام يعد عملًا صالحًا في جملة وعِداد أعمال العبد الصالحة التي يتقرب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها، فكما أنه يُتقرب إلى الله جَلَّوَعَلَا بفعل ما أمر، فإنه كذلك يُتقرب إليه جَلَّوَعَلَا بترك ما نهى عنه وزجر، ولهذا قال العلماء: الترك يعد عملًا؛ ترك ما نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه يعد في جملة أعمال العبد الصالحة.

وإذا قيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٧٧]؛ يندرج تحت قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: فعلوا الأوامر وتركوا النواهي، فترك النواهي هذا معدودٌ في جملة أعمال العبد الصالحة، وتأمل قول النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عندما قال له الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له بها أجر؟! قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟» قالوا: نعم. قال: «فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[1]؛ فإعفاف المرء نفسه ومنعها

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

وحجزها عن الحرام، وإبعادها عما نهى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه خوفًا من الله، ورجاءً لثواب الله، وتحقيقًا لتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإخلاصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا باب شريف وعظيم جدًا، وهو من جملة أعمال العبد الصالحة التي ترتفع بها درجاته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعلو مقامه عنده.

ثم إذا قوي داعي الشهوة، وقوي داعي الحرام، وكثرت المغريات التي تدفع بالمرء دفعًا إلى فعل الحرام ثم تركها لا لشيء إلا خوفًا من الله، ما أعظم هذا العمل! وما أجل قدره! وما أعظم ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! تكون نفس الإنسان مندفعة، والمغريات من حوله متكاثرة تدفعه للحرام ويتركها لا لشيء إلا خوفًا من الله، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٢٨]؛ فيمنعه من ذلك خوف الله؛ هذا من الأعمال العظيمة الجليلة التي يتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا سيأتي معنا أن الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار أحدهم توسل إلى الله بعمله الصالح الذي هو تركه للزنا خوفًا من الله، لمَّا خوفته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استجاب لهذا التخويف، وترك هذا الأمر مع قوة الداعي، وقوة الرغبة، واشتداد الشهوة عنده، وتحري هذا الأمر من زمن طويل، ثم لما تهيأ له وجلس بين رجليها ذكَّرته بالله وخوفته؛ فخاف من الله وتوقف وامتنع عن العمل؛ فإذًا ترك الإنسان للمحرمات تركه للمعاصي والآثام لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا معدود في أعمال العبد الصالحة.

تأمل هنا في هذا المقام شأن الإخلاص! من الناس من يترك الحرام ليس

خوفًا من الله وإنما مثلًا خشية الفضيحة، أو مثلًا خشية تأثر السمعة، أو مثلًا خشية أن يُدرى به وتقع عليه العقوبة، أو مثلًا حفظًا لصحته أو.. أو.. إلى أغراض كثيرة جدًا يمتنع فيها بعض الناس عن فعل الحرام، ويتجنب الحرام فعلًا هذا قصارا أمره أنه سلم من إثم هذا الذنب، ومن عقوبة هذا الذنب، سلم من العقوبة لكنه لا يحصِّل الأجر؛ لأنه لا يمكن أن يدخل في عملك الصالح إلا ما نويت به وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى سواءً في باب الفعل أو باب الترك، لا يمكن أن يدخل في عمل الإنسان الصالح إلا ما نوى به التقرب إلى الله ما قصد به وجه الله، وما طلب به ثواب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فذاك الذي يترك المعصية لأسباب وأخرى ليست عائدة لطلب ثواب الله والدار الآخرة لا تدخل في صالح عمله، ولا يدخل في صالح عمل العبد إلا ما قصد به وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وبهذا يكون من الأعمال الصالحة، أما إذا لم يقم على الإخلاص ونية التقرب لله عَزَّوَجَلَّ لا يدخل في عداد الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الأجر والثواب.

قال: (**ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصًا من قلبه**)؛ بمعنى: أن من الناس من يتركها ليس خالصًا من قلبه، لا يتركها للإخلاص، يترك الزنا يقول: أخشى أن أمرض مثلًا، أو أُصاب بهذه الأمراض التي انتشرت، أو يخشى أن يُطلع عليه ويعاقب، أو.. أو.. من الأمور الكثيرة؛ هذا قصارا أمره كما قدمت أن يسلم من إثم هذا الذنب ومن العقوبات المترتبة عليه، أما تحصيل الأجور

والثواب على هذا الترك لا يكون إلا بالنية الصالحة الخالصة لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: **(إذا تركها خالصًا من قلبه ولم يكن لتركها من الدواعي غير الإخلاص)**؛ بمعنى: أن هناك دواعي تجعل الإنسان يترك المعصية غير الإخلاص كثيرة جدًا، هذه الدواعي إذا كانت هي التي دفعته لترك المعصية لا يدخل هذا الترك في صالح العمل، بل لا يدخل هذا الترك في صالح العمل إلا إذا أخلص فيه العامل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مثَّل رحمه الله تعالى على ذلكم بقصة أصحاب الغار قال: **(وقصة أصحاب الغار شاهدة بذلك)**؛ والقصة مخرجه في «الصحيحين»[1] وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ»، وفي رواية: «خَالِصَةً لِلَّهِ»، وفي رواية: «فَلْيَدْعُو كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ مَعَ اللهَ».

لاحظ الروايات: «خَالِصَةً لِلَّهِ»، «صَالِحَةً لِلَّهِ»، «صَادِقًا فِيهَا مَعَ اللهَ»؛ ليتوسل كل واحد منكم بوسيلة من هذه الوسائل؛ لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفرج عنا ما نحن فيه، قال:

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٢٣٣٣، ٣٤٦٥، ٥٩٧٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٣).

«فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ»-هذا دأبه وعادته يسقى والديه قبل بنيه- «وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا» -وجد والديه قد ناما- «فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ» - يبكون، يصيحون - «عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ» -وهذا موضع الشاهد-، «فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ»، قال: إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك قوله: إن كنت تعلم - وسيأتي أيضًا في دعوات الآخرين - إن كنت تعلم، التردد في العلم هنا - إن كنت تعلم - الاعتبار فيه ليس عائد لعلم الله؛ علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيط بكل شيء، وإنما الاعتبار عائد هنا لجهل الإنسان بالأمور وجهله بمآلاتها وبعواقبها فيفوض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوسلًا إليه بعلمه جَلَّ وَعَلَا الذي أحاط بكل شيء، قال: «فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ»؛ هذا بدايات الفرج، فرأوا فرج الله منها، فرجة رأوا منها السماء.

«وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ»-حبًا شديدًا قام في قلبه لابنة عمه-، «وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى

آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا»، تأمل هذه المقدمات:

أولًا: القلب! قلبه علق حبًا وشهوةً ورغبةً.

وثانية: أنها علقت هذا الأمر بأن يحضر لها مئة دينار، وتعب في جمعها؛ فمع هذا الشوق، ومع هذا الجمع، ومع هذا الوقت الطويل، والحرص على هذا الأمر.

«فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»،-الله أكبر! يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه-، «فَقُمْتُ عَنْهَا»، ما الذي أقامه؟ رجلٌ الشهوةُ تأصلت وتجذرت في قلبه، ومضى وقتًا طويلًا يتطلع إلى هذه اللحظة وهذه الساعة، ولما علقت الأمر بالمال جمع المال وتعب في جمعه، ثم لما جلس بين رجليها، أمر طال الوقت ينتظره وبشغف شديد إليه، فلما جلس بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقام الرجل، وقد ذكرته بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، «فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ»، فعلت ذلك تركا للحرام لأجل الله: فعل صالح وعمل صالح من أعمال العبد الصالح.

وتأمل قولهم: «أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً»؛ فهذا عمل صالح من أعمال العبد التي يتقرب بها إلى الله يترك الحرام خوفًا من الله، يترك الحرام تقوىً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما صنع هذا الرجل.

«وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ» -مكيال- «فَلَمَّا

قَضَى عَمَلَهُ» أي: الأجير، «قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ»؛ رغب عنه: لم يقبل أن يأخذه، يقول: «فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ»، يزرع هذه الحبوب ويعتني بها، قال: «فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا»؛ فرق مكيال ثلاثة آصع تقريبًا، ثم يقول له: اذهب إلى هذه البقر ورعائها وخذها، ماذا قال الأجير؟ قال: «فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ».

سبحان الله! الآن عندما تتأمل بعض من يستأجرون الأجرة حقيقة يحصل وقائع مؤلمة جدًا، تجد العامل الفقير المحتاج وأسرته في بلده في فقر شديد، ثم يُستأجر على عمل ما من زراعة أو حفر أو غير ذلك، فيجهد في شدة الشمس، ووهج الحرارة وشدتها، ويعمل ويتصبب عرقًا شهرًا وشهرين..، ثم يأتي ويطلب حقه ويطلب أجرته من رجل غني موسع عليه في المال ثم يماطل، بل بعضهم لا يعطي ذلك الأجير أجره.

فيا سبحان الله! كيف يستطيع أن يمنعه حقه؟! ثم معه سعة في المال، إذا أعطى هذا الأجير أجره يعطيه من طرف ماله شيئًا لا يؤثر عليه، ومع ذلك يشح بعضهم بإعطائه حقه ويماطل ويؤخره الشهور والسنوات.

وهذا تقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه القربة، فعلها لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متقربًا إليه، فأعطاه هذا المال بما ترتب على المال من نماء وآثار حتى إن العامل

لم يكن يصدق! ظنه يستهزأ به ويسخر منه، فعل ذلك لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ففرج الله ما بقي وخرجوا يمشون؛ فهذه ثلاثة قُرب تقرب بها هؤلاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم في هذه الشدة وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، في هذه الشدة كل واحد توسل بعمل من أعماله.

أحدهم: ترك أن يعطي أبنائه مؤثرًا والديه، وغير راغبٍ في تقديم أبنائه على والديه.

والثاني: ترك الزنا مع شدة الشهوة، وعظم الرغبة، وقوة الداعي لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والثالث: ترك هذا المال مع تطلع النفس له ورغبتها فيه، وحرصها عليه؛ تركه وأعطاه لصاحبه لذلك الأجير، فكان ترك هؤلاء الثلاثة كله من القُرب الذي تقربوا به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكان وسيلةٍ صالحةً وسببًا مباركًا لأن فرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم الصخرة وخرجوا يمشون.

فإذًا هذا توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بترك ما نهى عنه تقربًا إليه.

والشاهد من القصة للموضوع: أن هؤلاء الثلاثة كلهم قامت هذه التروك عندهم على الإخلاص لله، وقصد التقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فدخلت في جملة قُرُباتهم، وكانت أيضًا من عظيم أعمالهم التي توسلوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها فكانت سببًا للفرج وزوال الكرب والشدة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن أسباب المضاعفة - وهو أصل وأساس لما تقدم - صحة العقيدة،

وقوة الإيمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير، فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله، تضاعف أعمالهم مضاعفة كبيرة لا يحصل مثلها، ولا قريب منها، لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة، ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت به عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم قعدت بهم عقائدهم.

ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلوم الفرق بين من يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالا متأولا».

الشرح

ثم ذكر الإمام ابن السعدي رحمه الله تعالى سببًا آخر من أسباب تضعيف الأجور قال: (**وهو أصل وأساس لما تقدم، صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير**)؛ ووصف رحمه الله تعالى هذا بأنه أصل وأساس؛ عليه بناء الدين كله كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٢٤]. والإيمان مثله مثل الشجرة[١]، وكما أن الشجرة التي لها فروعها ولها ثمارها لا تقوم إلا على أصل؛ فكذلك الإيمان بأعماله وصنوف

(١) للعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنف نافع بعنوان: «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان».

طاعاته وعباداته لا يقوم إلا على أصل؛ فالإيمان لا يقوم إلا على أصله، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٥].

أيُّ فائدةٍ للأعمال - وإن كثرت - إن لم تكن قائمة على العقيدة الصحيحة؟! إن لم تكن قائمةً على الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟! ولهذا الأعمال وإن كثرت وتنوعت وتعددت وتنوعت منافعها وآثارها؛ لا ينتفع بها العامل إذا لم تكن قائمة على الاعتقاد الصحيح. ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢٣]؛ أي: أعمالهم كلها تذهب هباءً وتضيع سُدى، ولا ينتفعون منها بشيء ما لم تكن الأعمال قائمةً على الاعتقاد الصحيح.

ولهذا ترى في آيات كثيرة جدًا في القرآن الكريم يُذكر الإيمان قيدًا لقبول الأعمال وشكر العامل عليها، وترتب الثواب والجزاء كقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النحل، من الآية:٩٧]؛ أي: لا يكفي العمل الصالح إلا بهذا القيد، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٩٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٩].

وفي القرآن آياتٌ كثيرة تقرب من الخمسين أو تزيد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا



ٱلصَّٰلِحَٰتِ [سورة البقرة، من الآية:٢٧٧]؛ فالعمل الصالح مهما كثر وتنوع لا يكون مقبولًا مشكورًا مرضيًا عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلا إذا أقامه العامل على الإيمان بالله، ومن المعلوم أن أهل الإيمان يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا فيما يقوم في قلوبهم من إيمان، فالإيمان الذي يقوم في القلوب درجات، ولهذا في الحديث قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[1]، فالقلب قد يكون فيه مثقال ذرة قدرًا يسيرًا جدًا، وقد يمتلئ تمامًا إيمانًا: «دَخَلَ عَمَّارٌ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالطَّيِّبِ الْمُطَيَّبِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مُلِئَ عَمَّارٌ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ »»[2] أي: حتى أطراف قدميه، فمن الناس من يمتلئ -تبارك الله- يمتلئ إيمانًا، ومنهم من ليس في قلبه من الإيمان إلا مقدار حبة من خردل، فيتفاوت الناس في هذا الإيمان في القلب قوةً وضعفًا، زيادةً ونقصًا تفاوتًا عظيمًا، هذا التفاوت الذي يكون في القلوب، فالإيمان يترتب عليه تفاوت عظيم في ثواب الأعمال، فشخص ملئ قلبه إيمانا، هل تستوي عبادته مع عبادة شخص ليس في قلبه من الإيمان إلا حبة خردل؟! هل يستوي أجرهما؟! هل يستوي ثوابهما؟! شخص امتلأ قلبه إيمانًا هل يساوي عمله عمل شخص ليس في قلبه إلا مقدار حبة

(١) رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه النسائي (٥٠٠٧)، وابن ماجه (١٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٢٠).



خردل من إيمان؟! لا والله لا يستويان.

ولهذا لم يكن أحد يعدل بصدِّيق الأمة رضي الله عنه وأرضاه، ورُوي في بعض الأحاديث: «لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ أهلِ الأرضِ، لَرَجَحَ»[(١)].

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: (كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا)،[(٢)] والمراد بالفضل والمكانة والإيمان والعبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا نعدل بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا، فلا يمكن أن يسوى عمل شخص امتلئ قلبه إيمانًا، وبين شخص إيمانه بقدر يسير جدًا حبة خردل من إيمان.

فهذا الإيمان الذي في القلب، وهذه العقيدة التي في القلب لها أثرها.

والإمام ابن السعدي رحمه الله تعالى لما يذكر هذا الأصل ينبه على أهمية العناية بتعلم العقيدة ودراستها، وأن تعتني - يا عبد الله - بأن تقوى مكانة العقيدة ومساحتها في قلبك، لا يكون الاهتمام بصورة العمل الظاهر مع الإخلال بالباطن والقلب، بل ينبغي على العبد أن يعتني عناية دقيقة جدًا بتقوية الإيمان في قلبه.. تقوية العقيدة في قلبه.. ترسيخ العقيدة في قلبه؛ لأن الإيمان بأمور الإيمان التي طُلب الإيمان بها الناس فيها على درجتين من حيث الجملة:

- درجة الإيمان الراسخ.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥) موقوفا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٩٧).



- درجة الإيمان الجازم.

الإيمان الراسخ هو هذا الذي ملأ القلب وعمَر الفؤاد، وأصبح حاضرًا في كل مقام، وفي كل حال؛ إذا صلى صلى بإيمان، إذا دعا دعا بإيمان، إذا صام صام بإيمان، معه إيمانه في أحواله كلها عامرًا قلبه، مالئًا فؤاده، ففرق بين العملين، وفرق شاسع بين العاملين.

قال: (**صحة العقيدة**)؛ هي أن تكون العقيدة التي في القلب عقيدة صحيحة قائمة على الكتاب والسنة مستمدة من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقوله: (**صحة العقيدة**)؛ قد يكون في القلوب عقائد، لكنها عقائد فاسدة، وعقائد باطلة، وعقائد ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها من سلطان، فماذا تفيده تلك؟! وماذا تنفعه؟! وكيف يكون نماء شجرة قامت على أصل فاسد؟! كيف يرجى نماء شجرة قامت على أصل فاسد وأساس منهار؟

فصحة العقيدة له أثر عظيم جدًا في تضعيف الأعمال، قوة الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبصفاته، وهذا باب يتفاوت فيه أهل الإيمان تفاوتًا عظيمًا، أنت في هذا الباب جرب نفسك عندما يكرمك الله بحضور مجالس مثلًا في فقه أسماء الله، أو في قراءة كتابات في فقه أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومعرفة معانيها، كيف ترى قلبك على أثر هذا التفقه والمعرفة في أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ يجد الإنسان من نفسه هو بونًا شاسعًا بين حاليه: استحضارًا لهذا الباب أو عدم استحضار له، يجد تفاوتًا عظيمًا، ويجد أيضًا تأثيرًا لهذا الإيمان على أعماله، على سلوكياته، على خشوعه وخضوعه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، على قوة أعمال القلوب

المتنوعة في قلبه؛ الحب، والرجاء، والخوف، وغير ذلكم من أعمال القلوب كلها تتحرك، كلها تتحرك تبعًا لهذه المعرفة.

ولهذا قال بعض السلف قديمًا: «من كان بالله أعرف كان له أخوف»[١].

والإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذه العبارة في بعض كتبه[٢]، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد، وأضف إليها ما شئت من الأعمال، والطاعات، والقربات، والتجنب للمحرمات، فعادت الخيرات كلها إلى صحة المعرفة بالله وصحة الإيمان به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٢٨].

والمؤمن في مقاماته، وفي أحواله: مصائبه، وفي الأمور التي هي محك في هذه الحياة لابد من استحضار أثر الإيمان، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٣]، من هو هذا الذي يحضر معه هذا الإيمان في كل هذه الأحوال وفي كل هذه المقامات؟

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا

(١) وهو من قول أبي عبد الله الأنطاكي كما في «الرسالة» للقشيري (ص:١٤١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٣).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).



﴿١٢﴾ [سورة الطلاق][1].

إذًا العلم بأن الله على كل شيء قدير، والعلم بأسمائه جَلَّ وَعَلَا وصفاته وعظمته وجلاله وكماله عَزَّوَجَلَّ هذا الإيمان له أثر عظيم على العبد في طاعاته وعبودياته وتقرباته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوة إرادة العبد)**؛ أيضًا الإرادة التي في القلب، ويتفاوت فيها أهل العبادة تفاوتًا عظيمًا، منهم من عنده إرادة ضعيفة، ومنهم من عنده إرادة قوية جدًا؛ فيتفاوتون في الإرادة، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»[2]، كم من رشد يبلغ أسماعنا ويصل إلى أذهاننا وعقولنا؟ وتضعف إراداتنا عن عمله مع أننا ندرك نفعه وفائدته وأثره وثمرته، ندرك ذلك لكن تضعف إرادتنا عن النهوض للقيام به فيتفاوت الناس في الإرادة.

وكذلك أيضًا من جهة أخرى أناس يريدون الخير وأناس يريدون الشر، فمثلا: وفي كل ليلة من ليالي رمضان ينادي منادٍ: «يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِر»[3]؛ لأن النفوس تتفاوت؛ نفوس تبغي الخير وتتشوف له وتتطلع إليه

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون» «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٧٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٤٤)، والنسائي في «سننه» (١٣٠٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٣٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٣) رواه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» =

وتريده، وأيضًا هذه الإرادة للخير يتفاوتون فيها تفاوتًا عظيمًا؛ فإذا قويت إرادة الخير في القلب.. كيف تكون الأعمال؟

إذا قويت إرادة الخير في القلب، إذا وفق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبد إلى إرادة قوية للخير قامت في قلبه، فهذا له أثر عظيم جدًا في تضعيف الأعمال.

الأمر الرابع: قال: (**ورغبته في الخير**)؛ بمعنى: أن تكون نفسه ميالة للخير ترغب فيه، تتحراه، تبحث عنه، تتطلع إلى أوقاته، تتشوف لمجيئه رغبة في الخير وحرصًا عليه؛ فهذه المعاني كلها في القلب، ولها أثرها العظيم البالغ في تضعيف الأعمال.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله، تضاعف أعمالهم مضاعفة كبيرة لا يحصل مثلها، ولا قريب منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة**).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أهل السنة والجماعة المحضة**)؛ أي: الخالصة التي لم تشب بشوائب البدع والمحدثات، السنة المحضة التي قال عنها ﷺ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[1].

هذه السنة المحضة التي توافق هديه ﷺ، وتوافق ما كان عليه -صلوات الله وسلامه عليه- وما كان عليه صحابته الكرام، على نفس النهج والطريق الذي

(١٣٣١).

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

كان عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يميل عنه يمينًا ولا شمالًا، لا يُحدث ولا يُغير ولا يُبدِّل، السنة المحضة الخالصة الصافية النقية التي لم تشب ببدع، ولم تشب بمحدثات.

قال: (**وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته**)؛ أيضًا هذا باب في العلم يتفاوت فيه الناس تفاوتًا عظيمًا، ولهُ أثرُه في تضعيف الأعمال.

العلم المفصل بأسماء الله وصفاته؛ فمن الناس من يعرف بعض الأسماء ولا يعرف معانيها، ومن الناس من في جيبه ورقة إذا أصبح قرأها وإذا أمسى قرأها، فيها تسع وتسعون اسمًا من أسماء الله، مع أن هذا العمل لا يُشرع ولا دليل على مشروعيته، وهو تقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما لا دليل عليه، لكن إذا نظرت مع هذه المواظبة على هذه القراءة، إذا نظرت في فقه أسماء الله ومعانيها ومدلولاتها والعبوديات التي يختص بها كل اسم، ما من اسم من أسماء الله إلا وله عبودية يختص بها هي من موجبات الإيمان بهذا الاسم ومقتضيات معرفته والإيمان به، فتجده في هذا الباب يجهله تمامًا، ولهذا قال العلماء: إحصاء أسماء الله الذي جاء في الحديث: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]؛ ثلاث مراتب: حفظها، وفهم معانيها، والعمل بما تقتضيه؛ بهذه الأمور الثلاثة، بهذه المراتب الثلاثة يحقق هذا الإحصاء الذي أُرشد إليه في هذا الحديث، وكان موجبًا لدخول الجنة، قال: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، وهذا فيه

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

التنبيه إلى الأثر العظيم المبارك لمعرفة أسماء الله والفقه فيها في نيل الدرجات العالية، وتضعيف الأجور، والفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ودخول جناته.

قال: (**وقوة لقاء الله**)؛ أي: أهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته.

(**وقوة لقاء الله**)؛ يعني: ما قام في قلوبهم من إيمان قوي بلقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا نفيسًا جميلًا أحيلكم إليه في كتابه «فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن» وهو مطبوع[1].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإيمان باليوم الآخر على درجتين:

أحدهما: التصديق الجازم الذي لا ريب فيه بوجود ذلك على حقيقته، فهذا لابد فيه من الإيمان.

والدرجة الثانية: التصديق الراسخ المثمر للعمل، فإن من علم ما أعد الله للطائعين من الثواب، وما للعاصين من العقاب علما واصلا إلى القلب، فلابد أن يثمر له هذا الإيمان الجد في الأعمال الموصلة إلى الثواب، والحذر من الأعمال الموجبة للعقاب »[2].

الإيمان الراسخ: هو ذلك الإيمان باليوم الآخر الذي يكون حاضرًا في قلب العبد في كل مقام، يتذكر في أي موضع يضع قدمه، هل هذه الخطوة التي

---

(١) بتحقيق شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

(٢) «فتح الرحيم الملك العلام» (ص٩٦).

أخطوها تنفعني في الدار الآخرة أو تضرني؟ وهو دائمًا يخطو خطواته ويقوم بأعماله وهو يستحضر دائمًا ويستذكر اليوم الآخر، والجزاء والحساب، والوقوف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهذا الذي يؤتى كتابه باليمين ماذا يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:١٩-٢٠]؛ أي: اعتقدت ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقة، من الآية:٢٠]؛ يعني: في الحياة الدنيا كنت أعتقد اعتقادًا راسخًا أنني سألقى الله؛ فكانت أعمالي وفق هذا الاعتقاد: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾؛ في كل مقام، في كل حال يتذكر أن هناك حسابًا وجزاءً وعقابًا وجنةً ونارًا، فيخطو في ضوء ذلك.

فرق بين من قام في قلبه هذا الإيمان الراسخ، ومن يباشر الأمور ويستبعد من ذهنه الحساب والجزاء، وإن كان في الأصل لا ينكر الحساب، وعنده إيمان جازم به؛ لكنه ليس راسخًا في قلبه، ولا متمكنًا من نفسه، ولم يعمر قلبه بهذا الإيمان.

قال: (**تضاعف أعمالهم مضاعفة كبيرة لا يحصل مثلها، ولا قريب منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة**)؛ وهذا مثل ما قدَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن صحة العقيدة وقوة الإيمان سبب لتضعيف الأعمال.

قال: (**ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم**)؛ أي: ليس عندهم أعمال كثيرة، ولكن عندهم صحة اعتقاد، فلم يكن عنده كثير عمل في الرغائب والنوافل والمستحبات لكن عقائدهم

الصحيحة.

)**وأهل البدع إن كثرت بهم أعمالهم قعدت بهم عقائدهم)**؛ لأن العقيدة الفاسدة تؤثر في العمل حتى لو كان كثيرًا، تؤثر في العمل تأثيرًا بالغًا، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١٠٣-١٠٤].

لم يكونوا قاعدين عن العمل، كانوا يعملون ويكثرون من العمل، ولكن عقائدهم قعدت بهم، عقائدهم الفاسدة قعدت بهم، بينما صاحب السنة إن قعدت به أعماله لقلتها وعدم كثرتها تنهض به وتقوم به عقيدته الصحيحة.

ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «اجتماع الجيوش» يقول: «فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين تقوم بأهلها-أي السنة- وإن قعدت بهم أعمالهم»[(١)]، فإذا كان الإنسان على السنة الصحيحة، والعقيدة السليمة، والإيمان القويم حتى وإن قلت أعماله وضعفت؛ تنهض به بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقيدته.

فالشيطان يتدرج مع العبد إذا أقبل على الطاعة والعبادة في خطوات، وأول ما يبدأ به يكون حريصًا عليه أن يوقعه في الشرك، فإن لم يجد سبيلًا إلى ذلك اشتد حرصه عليه في أن يوقعه في البدعة، وإن لم يجد سبيلًا على ذلك اشتد عليه في أن

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٣٨).



يوقعه في الكبيرة والمعصية وترك الواجبات، يحرص على أن يوقعه في المحرمات، ويبعده عن فعل الواجبات.

ولكن قد يكون من مداخل الشيطان في هذا المقام أنه يقول له: أنت صاحب سنة وبعيد عن الشركيات وبعيد عن البدع، ويقول له الشيطان: إن أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم؛ فلا عليك، فانتبه لهذا المدخل! فيبدأ يدخل عليه يقول له: أنت صاحب سنة، وعقيدتك صحيحة؛ فيضعف فيه جانب العمل، ويجعله يفرط في الواجبات، وربما يفعل بعض المنكرات ثم هو بينه وبين نفسه يقول: أنا صاحب عقيدة صحيحة، أنا صاحب إيمان سليم، ولا يزال الشيطان يهدم دينه، ويدخل عليه من مثل هذه المداخل - أعاذنا الله وإياكم-.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**ووجه الاعتبار**) الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحدث أن صاحب السنة والعقيدة الصحيحة يضاعف أعماله، وصاحب العقيدة الفاسدة تقعد به عقيدته، ذاك تضاعف أعماله، وذاك تقعد به عقيدته، وتكون سببًا لرد عمله؛ فما وجه الاعتبار في ذلك؟ ما وجه اعتبار التضعيف العظيم لصاحب السنة وصاحب العقيدة؟

قال: (**ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون**): أهل السنة مهتدون، أعمالهم التي يقومون بها يقومون بها على هداية، على بصيرة، يقوم بها على سنة، والآخر ضال عنده أعمال كثيرة، فلا وجود للدليل على العمل لا تجد عنده سنة؛ إما يكون رأى منامًا فبنى عليه عملا، أو بنى على ذوق، أو وَجْد أو

نحو ذلك، أو بنى ذلك على قصة، أو بنى ذلك على تجارب له ولأشياخه، أو بنى على قصص وحكايات، أو غير ذلك من أمور تبنى عليها أعمال كثيرة، وتجد أناسًا عكوفًا على أعمال وعلى أذكار وعلى عبادات لا يفارقونها ويجتهدون في القيام بها اجتهادًا عجيبًا، بعضهم يصلي الفجر ويمكث في مصلاه إلى التاسعة إلى العاشرة في أذكار كلها بدع أو كثير منها بدع لا أصل لها في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لجويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقد جلست في مصلاها: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[١]، وكانت أذكارها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على السنة، لكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بذكر مُضَعف، قال: «لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ»، فكيف إذًا الحال بمن يجلس من بعد الفجر إلى التاسعة مثلًا أو قبلها أو بعدها في أذكار محدثة، وفي أمور ما أنزل الله بها من سلطان.

بعضهم يمسك سبحته، ويسحب فيها بعد الفجر سحبًا، إذا رأيته ما تراه يعد، يسحب عشرين خرزه دفعة واحدة، ما تراه يعد تسبيحات، ويستمر في هذا السحب، قال لي أحدهم ممن كان كذلك وتاب من ذلك العمل: هذا نفعله ونكثر منه في الصباح طلبا للبركة، ويقال: يا هذا! أي بركة هذه التي تسحب بهذه الطريقة؟ ومتى كانت البدع مجلبة للبركة؟ البدع كلها تمحقها، والبدع كلها لا

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

خير فيها وكلها ضرر على صاحبها، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قولًا جامعًا في هذا الباب: «وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(١)]؛ البدع شر لا خير فيها، ومتى كان الشر مجلبة للبركة والخير؟! وتمارس هذه الممارسات ونظائرها وأمثالها طلبًا للخير.

وينبغي أن يتنبه في هذا المقام أن كثيرًا من هؤلاء يعملون هذه الأعمال وإذا سئلوا قالوا: والله ما أردنا إلا الخير، وهم صادقون في هذا اليمين، ما أرادوا إلا الخير، لكن كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: «وكم من مريد للخير لن يصيبه»[(٢)]، فإدراك الخير لا يكون إلا باتباع السنة المحضة التي كان عليها نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا»[(٣)].

قال: **(ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلوم الفرق بين من يمشي على صراط مستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم)**؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (٢١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٠٥).

(٣) «الاعتصام» (١/ ٢٩٧).

مُّسْتَقِيمٍ [سورة الملك، من الآية:٢٢]، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٣].

وفي حديث ابن مسعود: خَطَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[(١)]، والسبل التي تجنح بالإنسان وتحرفه عن صراط الله المستقيم كثيرة جدًا، ففرق بين عامل يعمل ولو كانت أعماله قليلة لكن يمشي على الصراط المستقيم، وبين شخص عنده أعمال كثيرة لكنها في سبيل من تلك السبل المنحرفة عن صراط الله المستقيم، لا يُسوى بين هذا وهذا، هذا سنته وعقيدته واتباعه وتأسيه سببٌ لقبول أعماله وتضعيفها، وهذا بدعه وضلالاته وأهوائه سبب لرد أعماله ولو كثرت، فالمقام جد خطير، وأيضًا جد مهم في هذا الباب؛ باب تضعيف الأعمال.

قال: (**وغايته أن يكون ضالًا متأولًا**)؛ غاية ما يكون من هؤلاء أن يكون ضالًا متأولًا، يظن أنه على شيء، أو على حق، أو على هدى؛ لكن جنحت به السبل، وانحرفت به الأهواء عن صراط الله المستقيم.

خلاصة الأمر: أن الإمام رحمه الله تعالى نبه في هذا الموضع على أهميه

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤٤٣٧)، وابن ماجه (١١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١١).



صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله، وقوة الإرادة، وقوة الرغبة؛ وهذه جوانب مهمة يحتاج أن يعتني العبد بها، ولهذا ينبغي حقيقة أن تكثف الدروس في العقيدة الصحيحة والتوحيد، وأن يُعتنى بتعليم الناس الاعتقاد، وتعليمهم التوحيد، وتعليمهم الهدي القويم، فالناس يحتاجون حاجة ماسة إلى هذا الجانب تعليمًا وتفقيهًا، وقول نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]،يدخل فيه الاعتقاد دخولًا أوليًا؛ لأن الاعتقاد هو الفقه الأكبر؛ الاعتقاد والإيمان بالله هو الفقه الأكبر[2] الذي يقوم عليه دين الله .سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

وفي السبب الذي قبله نبه رحمه الله تعالى على مكانة الإخلاص ومنزلته العلية في تضعيف الأعمال، ومما ينبه عليه في هذا المقام أن أمر الإخلاص أمر عظيم، ومقامه خطير جدًا، والنفس - نفس الإنسان - تأتيها من الأمور المتوالية ما تجعل جانب الإخلاص يتفلت، ولهذا العبد محتاج دائمًا إلى أن يعنى بنفسه في جانب الإخلاص تقوية له، وإزالة للأمور التي تضعفه.

قال الإمام سفيان الثوري: «ما عالجت شيئا أشد علي من نفسي، مرة علي،

---

(١) رواه البخاري (٧١).

(٢) قال شيخنا العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «الفقه الأكبر، وهو ما يتعلّق بالعقيدة التي لا مجال فيها للاجتهاد، وفقه الفروع، الذي فيه مجال للاجتهاد» «قطف الجنى الداني» (ص٤٥).

ومرة لي»[١]، بمعنى: أن النفس ومن ذلك النية تحتاج إلى معالجة دائمة ومستمرة إلى الممات.

وفي هذا المقام يحتاج العبد إلى عدة أمور:

الأمر الأول: الدعاء لأن قلبك بيد الله، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[٢] وهي دعوة عظيمة في تحقيق الإخلاص، إخلاص وخلاصه قلبك بيد ربك جَلَّ وَعَلَا، فافزع إلى الله، وألح عليه بالسؤال أن يرزقك الإخلاص، وأن يُعيذك من الشرك، وأن يجنبك الرياء، وأن يُعيذك من الكفر، كان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»،[٣] تعوذ ﷺ بالله من الكفر، وتعوذ بالله من الشرك، فسل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى التوفيق للإخلاص، وألح على الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الدعاء.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٨).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٦٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (**٣٧٣١**).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤٢).

الأمر الثاني: أن يقرأ الإنسان في مقام الإخلاص، ومكانته العظيمة، وثوابه الجزيل، وما يترتب عليه من تضعيف الأعمال، وعِظم الأجور عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يتذكر أن أعماله مهما كثرت وتنوعت وتعددت لن تدخل في صالح عمله إلا إذا أخلص فيها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يتذكر أيضًا في هذا المقام أنه إذا وقع في الرياء، وعمل لأجل الناس وطلب الشهرة عندهم، والصيت بينهم إلى آخر ذلك ماذا يغنوا عنه من الله شيئًا؟

فهو سيفارقهم ويفارقونه، وجميعهم سيقفون بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثم يوم القيامة يقال للمرائي: اذهب إلى من كنت ترائيهم، فخذ أو اطلب أجرك عندهم، فمثل هذه المعاني يستحضرها العبد ويجدد استحضارها في قلبه، ويسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويداوم على ذلك، والتوفيق بيد الله وحده.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

(**ومن أسباب مضاعفة العمل: أن يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين له وقع وأثر وغناء، ونفع كبير، وذلك كالجهاد في سبيل الله؛ الجهاد البدني، والمالي والقولي، ومجادلة المنحرفين، كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف.**

ومن أعظم الجهاد سلوك طرق العلم والتعليم، فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه، فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل له به طريقًا إلى الجنة، ومن



ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها، ويتسلسل إحسانها، كما ورد في الصحيح «إِذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».[1]

الشرح

ذكر هنا رحمه الله تعالى السبب الثالث من أسباب مضاعفة الأعمال: (أن **يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين له وقعٌ وأثرٌ وغناءٌ ونفعٌ كبير**)؛ فهذا من أسباب التضعيف.

فمن أسباب تضعيف الأجور أن يكون العمل الذي باشره العبد وقام به له أثر.

أن لا يكون من الأعمال التي هي قاصرة على العبد، بل هو من الأعمال المتعدية التي يصل نفعها إلى الآخرين، فإذا كان النفع الذي يصل بهذا العمل الذي قام به للآخرين كبيرًا سواءً في حياته أو أيضًا بعد مماته؛ فإن هذا يتضعف فيه الثواب تضعيفًا كبيرًا بل ويتسلسل مثل ما سيأتي إشارة الشيخ رحمه الله تعالى لذلك، يتسلسل هذا التضعيف بتسلسل الانتفاع بهذا العمل الذي قام به، وهذا مجاله رحبٌ واسع، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هيأ للعباد أعمالًا جليلة يتيسر للعبد أن يقوم بها في حياته فيتسلسل نفعها ويستمر أثرها، وما دام أن النفع متسلسلٌ

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

والأثر مستمر فإن الأجر يتضعَّف لذلك العامل كلما انتفع منتفع، واستفاد مستفيد من هذا العمل الذي قام به.

قال: (**أن يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين**)؛ نفعها للإسلام، أي: نصرًا لدين الله، ونشرًا له، وعملًا على تبليغه وإيصاله للآخرين، أو ذبًا عن حماه، وردًا لعدوان المعتدين، وشبهات المشبهين، وأباطيل المبطلين، وعدوان المعتدين؛ فهذا كله نفعٌ للإسلام بما يكون من هذا العامل من نصرةٍ لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أو للمسلمين.

ومجال النفع للمسلمين مجال واسع؛ إما أن ينفعهم في دينهم بالتعليم والتوجيه والنصيحة والدلالة والإرشاد، أو ينفعهم بأمور دنياهم بأنواع المساعدات وتفريج الهموم والكربات، ومعاونة المحتاجين، وإغاثة من اشتدت به كربته بما يستطيعه الإنسان؛ كل هذه مجالات تدخل تحت هذا الباب الذي هو النفع للمسلمين.

قال: (**لها وقعٌ وأثرٌ وغناءٌ**)؛ مشيرًا إلى أن الأعمال من هذا الباب منها ما يكون وقعه أو أثره قليل، ومنها ما يكون أثره كبيرًا جدًا وواسعًا وممتد المدى في حياة العبد وبعد مماته، فلا شك أن أثر هذا العمل الذي وقعه كبير وغناؤه عظيم وأثره واسع؛ أعظم أجرًا وأجزل ثوابًا من العمل الذي دونه في هذا الباب.

ثم مثَّل على ذلكم ببعض الأمثلة: قال: (**وذلك كالجهاد في سبيل الله**)؛ وأشار رحمه الله تعالى أن الجهاد له ثلاث مجالات:

- الجهاد بالبدن.



- والجهاد بالمال.
- والجهاد بالقول.

الجهاد بالبدن: بأن يقدم نفسه نصرة لدين الله، يبذل نفسه نصرة لدين الله، مجاهدًا في سبيل الله، طالبًا علو كلمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

والمجاهدة بالمال: الإنفاق من ماله في سبيل الله نصرةً لهذا الدين، وأيضًا ينفق من ماله في سبيل الله تعليمًا ونشرًا للعلم، وتهيئة للمجالات التي يكون بها انتشار العلم وانتشار الدين، وتعليم الجاهلين، وانتشار العلم والدين بين الناس يحتاج إلى أموال تُنفق وتُبذل من أهل الخير والفضل واليسار ممن وسع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليهم ببناء المدارس، بطباعة الكتب، بتهيئة الوسائل التي يُنشر من خلالها العلم؛ هذا كله من أنواع الجهاد في سبيل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالمال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾ [سورة الصف، من الآية:١٠-١١]؛ فذكر جَلَّ وَعَلَا الجهادين؛ الجهاد بالمال والجهاد بالأنفس.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الجهاد القولي)**؛ وهو جهاد الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وتفقيه الناس في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وهذا مقام أهل العلم والبصيرة بدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأيضًا مقام من أكرمهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأموالهم فسخروا أموالهم لنشر العلم، وتعليم الناس

وتفقيههم في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا جاء في الحديث: «لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[(١)].

قال: **(ومجادلة المنحرفين)**؛ أيضًا هذا الباب عظيم النفع، عظيم الوقع، كثير الغَناء والفائدة، مجادلة المنحرفين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٥٢]؛ أي: القرآن الكريم.

فمجادلة المنحرفين بحُجَّة البيان، والقرآن، وأحاديث الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدٌّ، وإبطالٌ لشبهاتهم، وإزهاقٌ لأضاليلهم وأباطيلهم؛ هذا باب عظيم مبارك، وقد جاء في الحديث: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِين»[(٢)]، فهذا باب عظيمٌ جدًا له نفع مبارك، عندما يأتي مبطل من أصحاب البدع وأرباب الشبهات ويلقي شبهة في وسط الجهال والعوام؛ فتبدأ تشوش عليهم في عقائدهم، في أديانهم، في عباداتهم تُدخل عليهم الشكوك، ثم يَنْتَدب عالم من العلماء المحققين

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).

(٢) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٣)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٨).

المحصلين المدققين فيقول: هذه الشبهة باطلة من وجوه: أولًا، ثانيًا، ثالثًا، رابعًا؛ حتى ينجلي الأمر، ويتضح فساد ما قاله المشبه، وما تكلم به المبطل، هذا باب مبارك جدًا، ومن آتاهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العلم يحسنون رد الشبهات، وبيان وجوه الدلائل على فسادها وبطلانها، وتجد الواحد منهم إذا تكلم في إبطال شبهة ما نقدها في عشرات الوجوه، وربما لو كان لا علم عنده قال: هذه لا جواب عليها، لكن إذا تصدى لها العالم المحقق؛ أبطلها من وجوه كثيرة.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كان في هذا الباب فارسا من فرسان الميدان، وإمامًا بحق رحمه الله تعالى، وكم نفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجهوده المباركة في رد البدع، حتى إنني أستطيع أن أقول بدون مبالغة: لا يكاد توجد شبهة من الشبه إلا وترى في كتبه رحمه الله تعالى وجوهًا في نقدها في الغالب الأعم، وعندما يتولى نقد شبهة ما يُفندها من وجوه.

لما دارت بينه وبين المتكلمين المناظرة في الكلام النفسي الذي قال به طائفة من أهل الكلام الباطل، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمرسول الذي جاء إليه، مرسول العلماء الذي جاء إليه، وكان وقتها في السجن، ولم يكن عنده كتب قال: أخبرهم أن الكلام الذي قالوه باطل من وجوه: (الأول...، الثاني.....، الثالث...)، قال له المرسول: لا أحسن نقل هذا الكلام اكتبه لي!، فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جلس وكتب تسعين وجهًا، وطبعت بمجلد بعنوان: «التسعينية» سردها رحمه الله تعالى في رد تلك الشبهة، مع أن خصومه كتبوا ورقة واحدة ومزقوها أكثر من مرة، يراجعونها ويجدون على أنفسهم فيها انتقادات، ثم يعيدون كتابتها إلى آخره، ونقد ذلك

رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تسعين وجهًا.

وهكذا الشأن في أئمة الدين وأهل العلم والفضل بما آتاهم الله من بصيرة وفقه ودراية بدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الشبهة يُزيلونها ويُبطلونها من الوجوه الكثيرة بما آتاهم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من علم[1].

ولولا منّة الله جَلَّ وَعَلَا على المسلمين بالعلماء الأكابر المحققين لضاع الناس في خضم الشبهات؛ شبهات المبطلين، وأيضًا في خضم الشهوات المهلكة لكن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قيض العلماء الأعلام، وفي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[2]، وأيضًا جاء في الحديث الآخر عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا»[3]، والمراد بهذا الغرس: أهل العلم والعمل والنصرة لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يؤيد الله جَلَّ وَعَلَا بهم دينه، ويرد بهم عاديات المعتدين من أهل الباطل والضلال والتشبيه والتلبيس.

---

(١) ومن لطيف ما ذكره العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن وجود شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَا يَخْفَى لُطْفُ البَارِي فِي وُجُودِ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَثْنَاءِ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَتَبيين الله بِهِ وَبِتَلَامِذَتِهِ مِنَ الخَيْرِ الكَثِيرِ وَالعِلْمِ الغَزِيرِ وَجِهَادِ أَهْلِ البِدَعِ وَالتَّعْطِيلِ وَالكُفْرِ ثُمَّ انْتِشَارُ كُتُبِهِ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ لُطْفِ الله لِمَنْ انْتَفَعَ بِهَا وَأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَى وُجُودِهَا فَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ وَالفَضْلُ» «المواهب الربانية» (ص٧٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٠).

(٣) رواه ابن ماجه (٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٩٢).

وتأمل هذه المعاني في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ [سورة آل عمران، من الآية:٧].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَا مِمَّنْ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»[١]؛ فهذه منزلة يُكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها بعض العباد، يتبوؤون هذه المنزلة العالية؛ منزلة العلم والبصيرة في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتكون على أيديهم وتتحقق على أيديهم وبجهودهم بتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الباب العظيم الذي نبه عليه بقوله: **(ومجادلة المنحرفين)**، وهذا المقام؛ مقام مجادلة المنحرفين ليس إلا للعلماء، ولا ينبغي للعوام والجهال وقليل العلم أن يُقحموا أنفسهم بهذا الباب، مع أنه الآن في زماننا هذا توجد مخاطرات كثيرة من بعض الناس، تجده لا فقه عنده ولا بصيرة في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويجلس مع رأسٍ من رؤوس الباطل وأرباب الشبهات ويقول: أناظره، أو يقول: أرى ما عنده، أو يقول: أبين بطلان ما عليه، ثم يتورط بشبهات تلقى عليه لا يجد لها جوابًا.

والشبهة خطيرة جدًا إذا دخلت في الصدر وولجت في النفس متى تخرج؟

«دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء؛ فقالا: يا أبا بكر

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣).



نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»[1].

يقول ذلك وهو إمام، فالشبهة لها خطورتها البالغة وأثرها العظيم، ولهذا هذا الباب: **(ومجادلة المنحرفين)**؛ ليس لكل أحد، هذا خاص بأهل العلم والبصيرة بدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهو مقامهم وهم أهله.

قال: **(كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف)**؛ يشير هنا إلى الدليل؛ دليل هذا السبب الثالث من أسباب التضعيف، يقول: **(كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف)**؛ مشيرًا إلى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في [سورة البقرة]: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦١].

﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾؛ أي سبعة في مائة سبعمائة، ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦١]؛ وحقيقة في هذا المقام يجدر أن يتذكر المسلم أن ربنا جَلَّ وَعَلَا واسع فضله، عظيم عطاؤه جل وعز كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، من الآية:٨٢]؛ عطاؤه جَلَّ وَعَلَا كلام ومنعه كلام.

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٤٢)، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٥٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٠).

ولهذا ينبغي على العبد في مقام التضعيف ومقام الثواب، ومقام زيادة الأجور أن يذكر أن الرب جَلَّ وَعَلَا واسع؛ واسع الفضل، واسع المن، واسع العطاء، لا يتعاظمه جَلَّ وَعَلَا حاجة يسألها جَلَّ وَعَلَا أن يعطيها، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٠].

فإذًا هذا دليل لهذا السبب الثالث أشار إليه بقوله: **(كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف)**، وأيضًا قال بعد السبعمائة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ واسع أي: فضله واسع، منّه واسع، عطاؤه جَلَّ وَعَلَا واسع، وأيضًا عليم بأعمال العباد وأحوالهم وطاعاتهم وعباداتهم، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٧٠]؛ فأعمال العباد مطلع عليها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تخفى عليه منها خافية.

قال رحمه الله تعالى: **(ومن أعظم الجهاد سلوك طريق التعلم والتعليم)**؛ التعلم، أي: أن المسلم يجاهد نفسه على طلب العلم وتحصيله والتفقه في دين الله ويصبر نفسه على ذلك، والعلم لا بد في تحصيله من تعلم، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»[(١)]؛ فالتعلم جهاد، والتعليم جهاد، كل منهما جهاد في سبيل الله، جلوس المسلم متعلمًا متفقهًا هو من الجهاد في سبيل الله، وكذلك

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٦٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٢٦).

تعليمه ونصحه ودلالته الناس إلى الخير هذا أيضًا من الجهاد في سبيل الله.

قال: (**فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته**)؛ نسأل الله أن يلطف بنا، الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية»[1]؛ لكن العلم والتعلم والتعليم كغيره من الأعمال؛ تأتي على الإنسان من هنا وهناك أمور تصرف النية عن بابها الصحيح ووجهها المسدد إلى إرادات دنيئة ومقاصد حقيرة؛ تعلم للشهرة، تعلم للسمعة، تعلم للرياء، تعلم لأغراض كثيرة جدًا، وليس من ذلك في سبيل الله إلا ما صحت به النية، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[2]،ومن الأعمال المباركة طلب العلم، وقد قال النبي ﷺ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».[3]

فالعلم عبادة، وطلب العلم عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشأن هذه العبادة كشأن غيرها من العبادات لا تُقبل إلا بالإخلاص، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة، من الآية:٥]؛ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٣]؛ ولهذا يحتاج طالب العلم إلى معالجة دائمة لنيته حتى تبقى صافية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قربة يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).

(٢) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

قال: (**فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال**)؛

قوله: (لا يوازنه عمل من الأعمال)؛ نظير قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية»؛ فإذا صلحت نية العبد في طلب العلم وتحصيله فهذا العمل لا يعدله عمل من الأعمال، لأن العلم النافع هو الذي يضيء للإنسان الطريق، ويعرف من خلاله السبيل، ويتبين به الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والشرك من التوحيد، والكفر من الإيمان؛ كل هذا لا يُعرف إلا بالعلم، ولهذا العلم مقدم على العمل، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [سورة محمد، من الآية:١٩]؛ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل؛ فالعلم مقدم.

وكان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل يوم إذا أصبح بعد أن يسلم من صلاة الفجر يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»(١)، يذكر هذه الجمل الثلاث التي هي في الحقيقة أهداف المسلم في يومه، وليس للمسلم في يومه إلا هذه الأهداف الثلاثة؛ العلم النافع، والرزق الطيب، والعمل الصالح المتقبل.

فكان كل يوم إذا أصبح يبدأ يومه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الدعوة المباركة، بسؤال الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق لهذه الأمور الثلاثة: بالعلم النافع قبل الرزق الطيب وقبل العمل الصالح المتقبل، بدأ بالعلم؛ لأن الرزق لا يمكن أن يميز طيبه من

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

خبيثه إلا بالعلم، كيف يتهيأ الإنسان أن يميز بين طيب وخبيث بدون علم؟!

ولهذا من اللطائف التي تُذكر في هذا المقام أن أحد العلماء قيل له: ألِّف لنا كتابًا في الورع، قال: ألَّفت كتابًا في البيوع.

فماذا يقصد؟ إذا قرأتم «كتاب البيوع»، وعرفتم البيوع الصحيحة والبيوع المحرمة وعرفتم الضوابط يُصبح الورع بعلم؛ لأن من لا علم عنده قد يتورع عن مباح ولا يتورع عن حرام؛ لأنه لا علم عنده ولا بصيرة ولا فهم.

وكذلك في باب العبادات والأعمال لا يمكن للإنسان أن يميز بين سنة وبدعة، وهدى وضلال، وحق وباطل؛ إلا بالعلم، ولهذا كان العلم مقدمًا، وبه يبدأ.

قال: (**فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال**)، لماذا؟ قال: (**لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه**)؛ هذه كلها ثمار وآثار لتعلم العلم وتعليمه، تدل دلالة واضحة على عِظم الثواب وتضعيف الأجر في هذا الباب لمن صلحت نيته.

وقد قال رحمه الله تعالى في مقدمة كلامه عن هذا السبب: (**إذا كان العمل له وقعٌ وأثرٌ وغناءٌ كبير**)؛ العلم تعلمه وتعليمه كم له من الوقع؟ وكم له من الغناء؟ كم له من الأثر؟ وكم له من النفع الكبير؟ كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه**)؛ هذه كلها ثمار وآثار واسعة وكبيرة جدًا

تترتب على نشر العلم وتعليم الناس وتفقيههم في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم أشار إلى الحديث وهو في «صحيح مسلم»: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».[1]

وهذا يدل أن توجه المسلم لمجالس العلم ولتعلم العلم والتفقه في الدين؛ باب عظيم مبارك يفضي بالعبد بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى جنات النعيم؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قال في القرآن: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٢].

والعمل لا بد فيه من علم، لا بد فيه من بصيرة حتى يعرف العبد أعمال الجنة وأعمال أهل الجنة؛ فيعمل بها، ويعلم أعمال أهل النار فيتجنبها ويحذر منها، فـ «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّة.»

ثم أشار رحمه الله تعالى أن هذا الباب يدخل فيه كذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين، قال: (**ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم**)؛ المشاريع الخيرية المراد بها التي تتضافر عليها الجهود؛ هذا بماله، وهذا بجاهه، وهذا بجهده، وهذا بعلمه، وهذا بآرائه، فكلٌ يقدم من جهته ما يسر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى له أن يقدمه، فتقوم مشاريع كبيرة نفعها عظيم جدًا، وآثارها متعدية.

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

ودنياهم.

«**أمور دينهم ودنياهم**» مثلا: بناء بيت من بيوت الله: مسجد للعبادة وإقامة الصلاة، وتعليم العلم الشرعي، والتفقه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلقاء الخطب والمواعظ، ومشاريع دور الأيتام والأرامل، وكذا مشروع بناء مدرسة، أو مؤسسة علمية لتعليم العلوم النافعة، وغير ذلك من مجالات الخير والنفع وهي كثيرة لا حد لها.

قال رحمه الله تعالى: **(التي يستمر نفعها ويتسلسل إحسانها)**؛ يستمر نفعها الأعمال الخيرية منها أعمال يستمر نفعها لوقتٍ قصير، ومنها أعمال بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعيدة المدى وطويلة الأمد ونفعها متسلسل لأجيال وأجيال، ومثل هذه المشاريع هي حقيقةً من التخطيطات المستقبلية النافعة لما يسميه بعض أهل العلم: (العمر الثاني) للعبد وللعباد، فعندما يتعاون مجموعة من الناس: هذا بماله، وهذا بعلمه، وهذا برأيه، وهذا بكذا، ثم ينشؤون مشروعًا مباركًا يعود نفعه بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على أجيال كثيرة ويتسلسل نفعه؛ هذا باب من أبواب تضعيف الأجور؛ لأن الأجر لا يزال يتضاعف بتسلسل هذا النفع واستمرار هذه الاستفادة، فكلما استفاد مستفيد، وانتفع منتفع بمثل هذه المشاريع المباركة تضعف الأجر لمن أنشؤوا هذا المشروع وقاموا على إنشائه.

قال الشيخ: «**كما ورد في الصحيح -أي «صحيح مسلم»- عن نبينا** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **أنه قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ**

جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»،[(١)] انقطع عمله؛ صلاته وصيامه وحجه وصدقاته وإلى غير ذلك كل هذه تنقطع بموته، «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ»؛ لكن إذا أكرمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ووضع صدقة جارية وبقيت بعد وفاته منتفعًا بها مستفادًا منها، الأجر هنا لا ينقطع، مثل أن يكون مثلًا أوقف وقفًا، طبع كتبًا علمية، اشترى كتبًا نافعة ووضعها في المكتبات، وبين أيدي طلبة العلم كلما قرأ قارئ فله أجر، وكذلك طبع المصاحف ووضعها في المساجد، وفي المدارس وبين المسلمين؛ فكلما قرأ فيه قارئ ولو بعد سنوات طوال يكتب له أجر من قرأ ومن تعلم ومن تفقه.

«**صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ**»؛ وهذه لها مجالات كثيرة جدًا من الأوقاف، ودور الأيتام، ودور الأرامل، والمشاريع الوقفية المتنوعة، وطباعة الكتب، نشر العلم، بناء المدارس ودور التعليم؛ كل هذه مجالات داخلة تحت قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ**»؛ أي: تجري وتستمر ويستمر النفع بها، ولا يزال صاحب تلك الصدقة يؤجر في حياته، ثم بعد مماته ما دامت هذه الصدقة قائمة منتفعًا بها.

كسقي الماء، وحفر الآبار، ووضع برادات الماء، ومد الأنابيب للأماكن التي يحتاج إليها؛ كل هذه داخلة في هذا الباب.

قال: «**أَوَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ من بعده**»؛ ولنتنبه لهذه الفتوى العظيمة المباركة التي بين أيدينا أكرمنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالاستفادة منها، فنرجو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يجعل

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).



لهذا الإمام الشيخ عبد الرحمن بن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأجر المضعف، والثواب الجزيل، ولغيره من أئمة المسلمين وعلماء الدين ممن بذلوا جهودًا عظيمة جدًا في نفع عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشيخ ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول أمره كان طالب علم؛ يتعلم ويتفقه إلى أن أصبح إمامًا من الأئمة، ولهذا طالب العلم الذي أكرمه الله وحبب إليه مجالس العلم يُصبِّر نفسه ويبذل جهوده ويستعين بربه ويدعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٧٤].

فيسأل الله، ويجاهد نفسه، ويصبر نفسه في العلم تعلمًا ثم من بعد ذلك تعليمًا، وتبقى له هذه العوائد العظيمة المباركة، والآثار الجليلة النافعة بعد مماته.

قال: «**أَوَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**»، وهذا أيضًا باب عظيم مبارك من النفع المتعدي الذي يبقى للإنسان بعد وفاته عندما يحرص على تربية أولاده تربية صالحة، وتأديبًا لهم بآداب الإسلام، وتوجيهًا لهم الوجهة الصحيحة، وصبرًا على تأديبهم وتربيتهم، ودعاءً لله متكررًا أن يصلحهم وأن يهديهم، وقيامًا بحقوقهم، ثم يبقى هؤلاء بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد وفاته يذكرونه بالدعاء، وبطلب المغفرة له، وأيضًا بالصدقة عنه، والحج عنه وغير ذلك من الأمور التي تنفع العبد بعد مماته.

وهذا الحديث الذي في «صحيح مسلم» جاء له نظائر فيما صح عن رسول الله -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه- منها ما رواه البزَّار في «مسنده» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»[1]،كذلك مما جاء في الباب نفسه ما رواه ابن ماجه رحمه الله تعالى في «سننه» عن نبينا -عليه صلوات الله وسلامه- من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ».[2]

وروى الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أُجُورُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ: مُرَابِطٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أُجْرِيَ لَهُ مِثْلُ مَا عَمِلَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا لَهُ مَا جَرَتْ، وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَدًا صَالِحًا فَهُوَ يَدْعُو لَه»،[3] وحول هذا الحديث: «سَبْعٌ

(١) رواه البزار في «مسنده» (٧٢٨٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٩٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٤٧)، قال الألباني: صحيح لغيره، «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٤).

يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا...»، وكنت قبل سنوات كتبت أوراقًا أرجو أن يكون فيها نفع وفائدة، ويحسن الأمر أن أنقلها هنا:

(سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ...).

الحمد لله المحمودِ على كل حال، الموصوف بصفات الكمال والجلال، له الحمد في الأولى والآخرة وإليه الرُجعى والمآل، أما بعد..

فإنَّ من عظيم نعمة الله على عباده المؤمنين أن هيَّأ لهم أبوابًا من البر والخير والإحسان عديدة، يقوم بها العبد الموفَّق في هذه الحياة، ويجري ثوابها عليه بعد الممات، فأهل القبور في قبورهم مرتهنون، وعن الأعمال منقطعون، وعلى ما قدَّموا في حياتهم محاسبون ومجزيون، وبينما هذا الموفَّق في قبره الحسنات عليه متوالية، والأجور والأفضال عليه متتالية، ينتقل من دار العمل ولا ينقطع عنه الثواب، تزداد درجاته وتتنامى حسناته وتتضاعف أجوره وهو في قبره؛ فما أكرمها من حال، وما أجمله وأطيبه من مآل.

وقد ذكر الرسول أمورًا سبعةً يجري ثوابها على الإنسان في قبره بعدما يموت؛ وذلك فيما رواه البزار في «مسنده» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»،[1] حسنه الألباني في «صحيح

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٧٢٨٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٠).

الجامع».

وتأمل -أخي المسلم- مليًّا هذه الأعمال، واحرص على أن يكون لك منها حظٌّ ونصيب ما دمت في دار الإمهال، وبادر إليها أشد المبادرة قبل أن تنقضي الأعمار وتتصرَّم الآجال، وإليك بعض البيان والإيضاح لهذه الأعمال:

أولًا: **تعليم العلم**؛ والمراد بالعلم هنا: العلم النافع الذي يبصِّر الناس بدينهم ويعرِّفهم بربهم ومعبودهم، ويهديهم إلى صراطه المستقيم، العلم الذي به يُعرف الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهنا يتبين عظم فضل العلماء الناصحين، والدعاة المخلصين؛ الذين هم في الحقيقة سراج العباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحكمة، حياتهم غنيمة وموتهم مصيبة؛ فهم يعلِّمون الجاهل، ويذكِّرون الغافل، ويرشدون الضال، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، وعندما يموت الواحد منهم تبقى علومه بين الناس موروثة، ومؤلفاته وأقواله بينهم متداولة، منها يفيدون، وعنها يأخذون، وهو في قبره تتوالى عليه الأجور، ويُتتابع عليه الثواب، وقديمًا كانوا يقولون: (يموت العالم ويبقى كتابه)، بينما الآن حتى صوت العالم يبقى مسجَّلًا في الأشرطة المشتملة على دروسه العلمية، ومحاضراته النافعة وخطبه القيِّمة؛ فينتفع به أجيال لم يعاصروه ولم يُكتب لهم لقيُّه، ومن يساهم في طباعة الكتب النافعة ونشر المؤلفات المفيدة وتوزيع الأشرطة العلمية والدعوية؛ فله حظٌّ وافر من ذلك الأجر إن شاء الله.

ثانيًا: **إجراء النهر**؛ والمراد: شقُّ جداول الماء من العيون والأنهار لكي تصل



المياه إلى أماكن الناس ومزارعهم؛ فيرتوي الناس، وتُسقى الزروع، وتشرب الماشية، وكم في مثل هذا العمل الجليل والتصرف النبيل من الإحسان إلى الناس والتنفيس عنهم بتيسير حصول الماء الذي به تكون الحياة بل هو أهم مقوِّماتها، ويلتحق بهذا مدُّ الماء عبر الأنابيب إلى أماكن الناس، وكذلك وضع برادات الماء في طرقهم ومواطن حاجاتهم.

ثالثًا: حفر الآبار؛ وهو نظير ما سبق، وقد جاء في السنة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِي طَرِيقٍ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[١]، متفقٌ عليه، فكيف إذًا بمن حفر البئر وتسبَّب في وجودها حتى ارتوى منه خلقٌ وانتفع بها كثيرون.

رابعًا: غرسُ النخل؛ ومن المعلوم أن النخل سيد الأشجار وأفضلها وأنفعها وأكثرها عائدةً على الناس، فمن غرس نخلًا وسبَّل ثمره للمسلمين، فإن أجره يستمر كلَّما طعِم من ثمره طاعم، وكلما انتفع بنخله منتفع من إنسان أو حيوان، وهكذا الشأن في غرس كل ما ينفع الناس من الأشجار، وإنما خُصَّ النخل هنا بالذكر لفضله وتميزه.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

خامسًا: بناء المساجد؛ التي هي أحب البقاع إلى الله والتي أذِن الله جَلَّ وَعَلَا أن تُرفع ويُذكَر فيها اسمه، وإذا بُني المسجد أقيمت فيه الصلاة، وتُلي فيه القرآن، وذُكر فيه الله، ونشر فيه العلم، واجتمع فيه المسلمون إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، ولِبانيه أجرٌ في ذلك كله؛ وقد ثبت في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ؛ بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»[1]،متفقٌ عليه.

سادسًا: توريث المصحف؛ وذلك يكون بطباعة المصاحف، أو شرائها ووقفها في المساجد ودور العلم حتى يستفيد منها المسلمون، ولواقفها أجرٌ عظيم كلما تلا في ذلك المصحف تالٍ، وكلما تدبر فيه متدبر، وكلما عمل بما فيه عامل.

سابعًا: تربية الأبناء؛ وحسن تأديبهم والحرص على تنشئتهم على التقوى والصلاح حتى يكونوا أبناءً بررة وأولادًا صالحين؛ فيدعون لأبويهم بالخير، ويسألون الله لهم الرحمة والمغفرة؛ فإنَّ هذا مما ينتفع به الميت في قبره.

وقد ورد في الباب في معنى الحديث المتقدم ما رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[١]،حسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

وروى أحمد والطبراني عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أُجُورُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ: مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ عَلَّمَ عِلْمًا أُجْرِيَ لَهُ عَمَلُهُ مَا عُمِلَ بِهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا يَجْرِي لَهُ مَا وُجِدَتْ، وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَدًا صَالِحًا فَهُوَ يَدْعُو لَهُ»[٢].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ:»، وذكر منها: «وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ»[٣].

وقد فسَّر جماعة من أهل العلم الصدقة الجارية بأنها الأوقاف؛ وهي أن يُحبَّس الأصل وتُسبَّل منفعته. وجُلُّ الخصال المتقدِّمة داخلة في الصدقة الجارية.

وقوله: «أو بيتًا لابن السبيل بناه»، فيه فضل بناء الدور ووقفها لينتفع بها المسلمون سواءً ابن السبيل، أو طلاب العلم، أو الأيتام، أو الأرامل، أو الفقراء والمساكين، وكم في هذا من الخير والإحسان؟!

وقد تحصَّل بما تقدم جملة من الأعمال المباركة إذا قام بها العبد في حياته

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٢)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٩٨).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٣١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٧٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٢).

جرى له ثوابها بعد الممات، وقد نظمها السيوطي في أبياتٍ فقال:

إذا مَـــاتَ ابـــنُ آدم لَـــيْسَ يجـــرِي
عَليـــه مِـــن فِعَـــالٍ غيـــر عَشْـــرِ

علـــوم بثَّهـــا، ودعـــاءُ نَجْـــلٍ
وغَـــرْسُ النَّخـــلِ، والصـــدقاتُ تجـــري

وِراثـــةُ مُصـــحفٍ، ورِبـــاطُ ثَغْـــرٍ
وحَفْـــرُ البئـــرِ، أو إجـــراءُ نَهـــرِ

وبيـــتٌ للغريـــبِ بَنـــاهُ يـــأوي
إليـــه، أو بِنـــاءُ مَحـــلِّ ذِكْـــرِ

وقوله: (ورِباطُ ثَغْرٍ)؛ شاهده حديث أبي أمامة المتقدم، وما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[(١)]؛ أي: ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر.

ونسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يوفقنا لكل خير، وأن يعيننا على القيام بأبواب الإحسان، وأن يهدينا سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين).

---

(١) رواه مسلم (١٩١٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**ومن الأعمال المضاعفة، العمل الذي قام به العبد، شاركه فيه غيره، فهذا أيضا يضاعف بحسب من شاركه، ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل، فهذا بلا ريب يزيد أضعافًا مضاعفةً على عمل إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها، ولهذا فضل الفقهاء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة**».

الشرح

لا زلنا مع هذه التقعيدات العظيمة في هذا الباب المبارك من أبواب الفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته والتقرب إليه عَزَّوَجَلَّ.

ومضى معنا من بيان الشيخ رحمه الله تعالى وإيضاحه لما يكون به تفضيل العمل وتضعيف أجره وثوابه عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ فذكر أسبابًا عديدة ثم قال هنا: (**ومن الأعمال المضاعفة العمل الذي إذا قام به العبد شاركه فيه غيره**)؛ أي: أن العبد عندما يقوم بعملٍ من الأعمال، أو عبادة من العبادات سيتأثر الآخرون به، ويستنون به، ويقتدون به فيكون مؤثرًا بعمله، ويسمي هذا أهل العلم: (الدعوة بلسان الحال)؛ أي: يرى الناس حاله في العمل ومبادرته إليه ومسارعته إلى القيام به فيتأثرون ويشاركونه في هذا العمل، فيكون تسبب في تنشيطهم ورغبتهم وحرصهم على هذا العمل، فيكون له أجر عملهم.

وهذا باب من أبواب التضعيف في الثواب ولهذا قال: (**العمل إذا قام به العبد

شاركه فيه غيره)؛ أي: يكون تسبب في هذا العمل بالقدوة، كأن يدعى مثلًا إلى صدقة من الصدقات، ويتوقف بعض الناس ثم يأتي أحدهم وينفق بمال طائل، فيراه الناس قد أنفق هذا المال الكبير، فيتأثرون ثم يتوالى الناس نفقة متأثرين بهذا الشخص الذي كان قدوة لهم، فيستنون بسنته ويسيرون على نهجه فيكون له أجرهم جميعًا، وفي هذا جاء الحديث عندما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ».[(١)]

وكان سبب هذا الحديث:

«فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ وَالآيَةَ الَّتِي فِي [الْحَشْرِ] ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ». قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً...»، إلى آخر الحديث.

فهذا قام بعمل الذي هو الصدقة فشاركه غيره قال: (**فهذا أيضًا يضاعف بحسب من شاركه**)؛ يضاعف له أجره عند الله عَزَّوَجَلَّ بحسب من شاركه؛ أي: من كان مؤثرًا فيهم بالقدوة في المشاركة، ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا ما سبق: (**ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل، فهذا بلا ريب يزيد أضعافًا مضاعفة على عمل إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد**).

ولهذا في مسألة الصدقة، وهل الأفضل أن تكون سرًا أو علانية؟ ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

[سورة البقرة، من الآية:٢٧١].

فإذًا هذا الباب -باب الصدقة- إذا كان يترتب على الإنفاق العلني وكان هذه نية الشخص بالإنفاق العلني بأن يؤثر في الآخرين، وأن يقتدوا به، وأن ينفقوا، مثل لو قال شخص مثلًا: الأسرة الفلانية فقيرة جدًا ومحتاجة، ومن يقف على حاجة هذه الأسرة يجد أنها محتاجة جدًا، وأنا عندما رأيتهم أعطيتهم خمسة آلاف، وعندما قال هذه الكلمة لم يقصد إلا أن يؤثر في الآخرين وأن يشاركوه، ربما يشاركه العشرات:

أولًا: بدعايته.

وثانيًا: بنفقته.

وربما يشاركه العشرات نفقة وإحسانًا إلى هذه الأسرة الفقيرة؛ فتكون هذه

النفقة العلانية أراد بها هذه النية الصالحة، فيفوز بأجر هؤلاء الذين شاركوه، والأعمال معتبرة بنياتها؛ «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».[١]

فإذا كانت هذه نيته أن يؤثر في الآخرين، وأن يُقبل الآخرون على الإنفاق والبذل؛ فله ما نوى، وإذا تأثر الناس بصنيعه هذا كان له مثل أجور من تبعه واهتدى بعمله دون أن ينقص من أجورهم شيء.

قال: (**فهذا بلا ريب يزيد أضعافًا مضاعفة على عمل إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عامله، ولهذا فضل الفقهاء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة**)؛ الأعمال القاصرة تنفع العامل نفسه، أما الأعمال المتعدية قد ينتفع بها مئات! قد ينتفع بها ألوف! ويكون له بعدد هؤلاء الذين انتفعوا بعمله هذا المتعدي فيكتب له مثل أجورهم.

قال رحمه الله تعالى: «**ومن الأعمال المضاعفة: إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين.**

فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أزيل ما يضرها كان الأجر عظيما؛ وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش، فغفر لها بغيها شاهدة بذلك».

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).



الشرح

ثم ذكر رحمه الله تعالى هذا السبب الآخر من أسباب تضعيف الأجور: (**إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير**)؛ فلا شك أن العمل إذا قوي وقعه، وعظم نفعه مع النية الصالحة والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه؛ يعظم ثوابه وأجره عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وضرب على ذلك بعض الأمثلة قال: (**كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكُرب عن المكروبين**)؛ فإذا كان العمل بهذا الحجم عمل كبير كإنقاذ أناس من هلاك، من غرق، من كوارث، من مصائب عظيمة؛ يوفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعينه بعملٍ ما؛ فتزول الشدة، ويتفرج الكرب.

فمثل هذه الأعمال التي يترتب عليها نفع عظيم ووقع كبير يتضعف فيها الثواب، حتى لو كان مع بهيمة من البهائم، فكيف مع الآدميين؟! حتى لو كان مع بهيمة من البهائم، إذا عمل الإنسان وبذل جهدًا وسعى وعمل لإنقاذ بهيمة، أو مساعدتها، أو سقيها لكونها عطشت وشارفت على الهلاك؛ فمثل هذه الأعمال العظيمة إذا قام بها العبد مخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ترتب عليها الجزاء العظيم والثواب المضعف، لكن لا بد في هذا كله من الإخلاص.

ومن هذا الباب ما جاء في «صحيح مسلم» أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا



يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ».(١)

غصن شوك! هذا الرجل قام في قلبه من الإيمان والمحبة للمسلمين، والنصح لهم، والإخلاص لله، والتقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قام في قلبه معانٍ عظيمة ترتب عليها هذا الثواب والأجر، وإلا قد يمر الشخص بغصن شجرة ذي شوك ويزيله عن الطريق وهو يقول في ذهنه: سأرجع ليلًا أخشى أن أتأثر فيه، صورة العمل واحدة إزالة هو إزالة، يقول: أخشى أن أرجع ليلًا وأتأثر فيه، لم يفكر في المسلمين إطلاقًا، ولم يقم في قلبه مثلًا رحمة وشفقة ونصح إلى آخر ذلك لم يقم شيء من ذلك، صورة العمل واحدة: إزالة هذا الشوك عن الطريق، لكن يتفاوت العمل، ويتضعف الأجر تضعفًا عظيمًا وكبيرًا بحسب ما قام في القلب من الصدق والإيمان والنصح لعباد الله.

ولذلك هذا الرجل الذي شكر الله عمله؛ فأدخله الله الجنة؛ قام في قلبه من النصح والإخلاص والصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ والنصح لعباده ما ترتب عليه هذا الثواب، ولهذا يجب أن يُعلم أنه ليس كل شخص يزيل غصن شجرة ذا شوك في الطريق يفوز بهذا الأجر، وليس كل شخص يسقي كلبًا اشتد به العطش أيضًا يفوز بالأجر الآتي ذكره، بل هذه الأمور كلها راجعة إلى القلب وما فيه من الإخلاص، وما فيه من الصدق، وما فيه من طلب الثواب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما فيه من الرحمة للآدميين والبهائم، فهذه معاني تقوم في القلب عظيمة جدًا؛

(١) رواه مسلم (١٩١٤).

فيترتب عليها هذا الثواب المضعف.

ولهذا نقل ابن مفلح في كتابه «الآداب الشرعية»عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَذَكَرَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ الْحَسَنَةَ تَعْظُمُ وَيَكْثُرُ ثَوَابُهَا بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ حَتَّى تُقَابِلَ جَمِيعَ الذُّنُوبِ وَذَكَرَ حَدِيثَ «فَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ وَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ» وَحَدِيثَ الْبَغِيِّ الَّتِي سَقَتْ الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهَا ذَلِكَ فَغَفَرَ اللهُ لَهَا.

وَحَدِيثَ الَّذِي نَحَّى غُصْنَ شَوْكٍ عَنْ الطَّرِيقِ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ فَغَفَرَ لَهُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ»[١].

إذًا ليس كل من يقول: (لا إله إلا الله)؛ يفوز بهذا الثواب العظيم الذي حصله صاحب البطاقة الذي ذكر في الحديث، وليس كل من ينحي غصن شوك عن الطريق يفوز بهذا الأجر الذي ذكر في الحديث، وليس أيضًا كل من سقى كلبًا يفوز بهذا الأجر، وإنما الأمر عائد في عظم الثواب وتضعيف الأجر لما قام في القلوب من الصدق مع الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والإخلاص له، والنصح لعباده.

قال: **(فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من هذا العقاب، وفوزه بجزيل الثواب حتى البهائم؛ إذا أزيل ما يضرها كان الأجر عظيمًا؛ وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش، فغفر لها بغيها شاهدة بذلك»**.

---

(١) «الآداب الشرعية» (١/ ١٧١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»(١).

امرأة كانت تمارس البغاء ولا تنفك عنه، ماضية على هذا العمل القبيح والعمل الشنيع، فمرَّت ببئر وكانت عطشى؛ فنزلت وشربت، ثم لما خرجت وجدت كلبًا يكاد يأكل الثرى من شدة العطش؛ فرحمته، قام في قلبها رحمة له، ونزلت، ولا يراها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رب العالمين، نزلت وملأت موقها (خفها) ماءً وأمسكته بفمها وخرجت وسقت الكلب، هذه المرأة التي فازت بهذا الأجر توبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها كانت ناشئة عن إخلاص قام في قلبها، وصدق منها مع الله، ورحمة عظيمة بهذه البهيمة، فمعان عظيمة اجتمعت في قلب هذه المرأة؛ فترتب على عملها هذا الثواب العظيم.

ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين»: «فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»(٢).

ثم قال: «وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب - وقد

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٠).

اشتد به العطش يأكل الثرى - فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها، وهو ملآن، حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورا، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها؛ فهكذا الأعمال والعمال عند الله»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبا يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، [وإخلاص] قائم بقلبه، فغفر له بذلك؛ فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»[2].

ثُمَّ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج، من الآية:٣٧]؛ فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدق به،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤١).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ١٣٦).

لكن يناله تقوى القلوب.

وفي الأثر: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب»[1].

هذا الذي نبه عليه شيخ الإسلام، وكذلكم تلميذه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى فيه بيان أهمية الإخلاص، وهذا أمر بدأ به ابن السعدي رحمه الله تعالى في هذه الفتوى التي بين أيدينا: أهمية الإخلاص، والصدق مع الله، والنصح لعباد الله إلى غير ذلكم من المعاني القلبية التي يترتب عليها تضعيف الأجر وعظم الثواب عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثم فيما يتعلق بهذه المرأة البغي، ما معنى: «فغفر لها»؟ هذه امرأة دأبت على ممارسة البغاء، وممارسة هذا الفعل القبيح، والبغاء - وله نظائر - إذا تعلق القلب به خلاصُ صاحبه منه متعسر إلا أن يشاء الله رب العالمين، وأن يلطف به أرحم الراحمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولهذا يكون صاحب هذا العمل وصاحب تلك الممارسات يدرك تمامًا أنها قبيحة، وأنها مضرة، وأنها يترتب عليها الآثام والأوزار، ثم تجده يقول: لا أستطيع الخلاص منها! حتى بعض الناس -والعياذ بالله- يُبتلى بما يسمى بالعادة السرية بممارستها، ويبدأ في بداية حياته معها بدايات ثم تتأصل في نفسه، ويرى أضرارها عليه؛ الصحية، والبدنية، والنفسية، وغير ذلك، وتجده يود أن يتخلص منها وأن يتركها، وتجده يتوب ويستغفر، ثم

(١) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٢٢).

يعود، ويعود، ويعود، ويجد أنه لا يتمكن من الخلاص.

أقول ذلك لننتبه لأمر ألا وهو أن الغفران الذي حصل لهذا المرأة هو أن الله عَزَّوَجَلَّ أكرمها بأن أزال من قلبها تمامًا هذا الأمر، فأصبحت لا ترغبه كما كانت، ولا تميل إليه كما كانت، ولا تبحث عنه كما كانت، نُزع من قلبها، وأصبح أمرًا بغيضًا كريهًا إلى نفسها تابت منه وليس في قلبها تعلق، وهذا أمر حقيقة عظيم جدًا، وينبغي أن يُتنبه له.

ولا أخفيكم أن هذا المعنى في فهم هذا الحديث استفدته قريبًا من قصةٍ حصلت لأحد الأشخاص حدثني بها أحدهم في إحدى الدول العربية، حدثني بها جاره يقول: كان جارنا - وهو شاب لم يبلغ الثلاثين - مدمن خمر، ولا نراه في المسجد أبدًا، ولا يفارق الخمر، ويشربها كل يوم، يقول: فرأيته أقبل على المسجد، بل رأيته إذا صلى الفجر لا يقوم حتى تشرق الشمس، تعجبت لأمره! انتظرت حتى لم يبقَ في المسجد أحد؛ فجلست إلى جنبه، وحمدت الله عَزَّوَجَلَّ على هدايته وعافيته، وما أعلمه من حاله، وقلت له: ما قصتك يا فلان؟

يقول: فأخذ أولًا يحدثني عن حاله مع الخمر، وأنه ما كان يتصور أنه يفارقها! يقول: في ليلة من الليالي سهرت مع أصحابي حتى الفجر كما هي عادتي..ثم أرجع بعد السهر إلى البيت وأشرب الخمر وأنام إلى المغرب..ثم أقوم إلى السهر إلى آخر الليل وأشرب الخمر ثم النوم وهكذا حياتي، وفي إحدى المرات أصابني جوع... ولا أستطيع أن أشربها وأنا جائع، ولم يكن معي إلا

مال يسير جدًا يكفي أن أشتري به خبزًا، وشيئًا أضعه فيه حتى أملأ بطني لأتمكن من شرب الخمر، فخرجت من البيت وقت الفجر لهذا الغرض، وليس معي إلا مال يكفيني لشراء الخبز، وشيء أضعه فيه حتى آكله.. وكان الوقت في أشد ما يكون في الشتاء، وقريبًا من هذا المكان الذي يباع فيه الطعام رأيت جروا -كلب صغير- يرجف رجفًا شديدًا من البرد، واشتد به الجوع، فقام في قلبي رحمة عظيمة لهذا الجرو! رحمته وأشفت عليه فعَدلْت عن رأيي وضَحيت برغبتي في الطعام وفي شرب الخمر الذي لا أفارقه.. وذهبت إلى الدكان واشتريت حليبًا، وأخذت هذا الجرو وأدخلته في فروتي وضممته إلى صدري رحمة به، وحتى يدفأ، وقام في قلبي رحمة عجيبة لذلك الجرو..فلما دفأ أخذته إلى البيت، وأتيت بوعاء وصببت له الحليب وأخذ يشرب، وأنا في قلبي الرحمة له، فلما أنهى الشرب، أحسست براحة عظيمة جدًا، ونمت مرتاح البال.. ولما قمت من النوم أصبحت لا أطيق الخمر إطلاقًا ولا أفكر فيها، ونُزع من قلبي حبها والشغف بها! فسبحان الله العظيم.

وأحد كبار السن من الصالحين -أحسبه والله حسيبه- يقول لي: كنت على ناقتي -الكلام هذا قديم في شبابه- راجعًا إلى بلدي، وكان معي قربة ماء ليس فيها إلا ماء قليل جدًا لا يكفيني حتى أنا لأصل إلى مكاني مع شدة الصيف، يقول: فجلست في وقت القائلة -الظهيرة- تحت ظل شجرة أستظل، يقول: بينما أنا جالسٌ تحت ظل الشجرة، جاءني كلب يلهث يكاد يأكل الثرى من شدة

العطش، يقول: فرحمته، ولم يكن معي وعاء لأصب له فيه الماء، فحفرت حفرة صغيرة في الأرض وأنزلت فيها ثوبي في الحفرة حتى أصبح ثوبي مع الحفرة مثل الوعاء، يقول: وثيابنا قديمًا كانت نوعًا ما تحفظ الماء قليلًا، فأحضرت القربة وأخذت أصب الماء في ثوبي في هذا الذي جعله مثل الوعاء في الحفرة، والكلب يلعق الماء حتى نفذ جميع الماء الذي معي، يقول: فعلت ذلك وقام في قلبي رحمة به.

يقول: والله ما كنت أرى في السماء قزعًا قليلًا من سحاب ما كنت أراه! يقول: ما هي إلا لحظات وتُقبل سحابة، وتغطي المكان الذي أنا فيه كاملًا، يقول: وتصب حتى روت الأرض وملأت قربتي، وشربت الدواب والطير، وملأت قربتي ومضيت! هذه يحدثني بها صاحب القصة مباشرة، ورجل -أحسبه والله حسيبه من الصالحين-.

فمثل هذه الأعمال لا يستهين بها العبد؛ رحمة بهيمة الأنعام تقربًا إلى الله وطلبًا لثوابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أيضًا رحمة عباد الله، والرفق بهم، والحرص على الإحسان إليهم، ودفع ما يؤذيهم، هذا كله من الأعمال الجليلة العظيمة التي يتضاعف فيها الثواب، وفيها الثواب المعجل المؤجل! هذا الرجل أكرمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ساعته، وأيضًا البهائم التي حوله كلها سُقيت بهذا السبب الذي يسره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له، فمثل هذه الأعمال لا يستهين بها العبد، وأيضًا مقابلها لا يستهين العبد بالإساءة والإضرار بالبهيمة، أو بعباد الله بالظلم بالعدوان، مثل

هذه الأمور أيضًا بالمقابل يترتب عليها من الإثم والعقوبة والضرر على فاعلها في دنياه وأخراه.

(**فغفر لها**): فمثل هذه الأعمال العظيمة الجليلة الكبيرة لا يستهين بها الإنسان، قد يقوم بعملٍ من مثل هذه الأعمال لا يلقي بالًا له عندما يقوم به، فتُغفر به ذنوبه كلها، ترتفع به درجاته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل أحيانًا يقول كلمة واحدة من رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يلقي لها بالًا يرفعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها درجات، كما ثبت بذلكم الحديث عن رسول الله -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

قال: (**وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش؛ فغفر لها بغيها، شاهدة بذلك**)؛ هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مقيد كما تقدم بقيد الإخلاص، وقصد التقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعمل، هو من هذا الباب؛ أعمال قد تكون في مرأى الناس يسيرة، لكنها عند الله جَلَّ وَعَلَا عظيمة وثوابها جزيل.

هذا إحسان للبهيمة بمقابل ذلك الإساءة للبهيمة، قد يسيء الإنسان إلى بهيمة ولا يلقي بالًا لتلك الإساءة فيهوي بذلك في النار، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما صلى بالناس صلاة الكسوف، رأى النار وحدَّثهم عن بعض الأشياء التي رآها في النار، ومما رآه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وذكره للصحب الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قال: «رأيت امرأةً من بني إسرائيل دخلت النار في هرَّة».

ولما صلى بالناس الكسوف ورأى النار رأى المرأة في النار عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»(١)؛ فعذبت في هرَّة، فقد يدخل الإنسان النار ويعذب في بهيمة من هذه البهائم، وقد ينجو من النار وتُغفر له ذنوبه في بهيمة من البهائم، فهذا باب عظيم فيما يتعلق بتضعيف الأعمال، وأيضًا بمقابله عِظم العقوبة ودخول النار عندما يقوم الإنسان بنقيض هذا العمل.

قال رحمه الله تعالى: (**ومن أسباب المضاعفة: أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مصر على شيء منها، فإن أعمال هذا مضاعفة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ...»(٢) الحديث**).

الشَّرح

ثم قال رحمه الله تعالى: (**ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب غير مصر على شيء منها**)؛ هذه المعاني إذا أكرم الله سبحانه عبده بقيامها كان حسن الإسلام؛ أي قام فيه إحسانٌ في إسلامه وديانته وتقربه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، محافظًا على الفرائض، متجنبًا

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٥)، مسلم (٩٠٤).

(٢) رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).



المحرمات، ولا يلزم أن يكون محافظًا على النوافل والرغائب:حسنُ الإسلام، رجل معتنٍ بالفرائض؛ وواجبات الدين، متجنب للمحرمات والخسائس والرذائل مبتعد عنها.

فإذا كان **(حسن الإسلام حسن الطريقة)**[(١)]؛ أي مؤتسيًا في عمله وعبادته وطاعته بالرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فلا طريق إلا طريقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، **(حسن الطريقة تاركًا للذنوب)**؛ أي: مبتعدًا عن المعاصي والآثام متجنبًا لها.

(غير مصر على شيء منها)؛ يعني إذا انفلت منه شيء أو بَدَرَ منه شيء سارع إلى التوبة النصوح، والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإنابة إليه.

قال: **(فإن أعمال هذا مضاعفة، كما ورد بذلكم الحديث الصحيح قال: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»)**.

مما يضاف هنا في باب التضعيف: النية الصالحة حتى وإن لم يتيسر للعامل العمل، وهذا باب عظيم من أبواب التضعيف، وهو من ألطاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومننه العظيمة على عباده، وتأملوا -رعاكم الله- في هذا ما رواه الترمذي وأحمد

(١) قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمضاعفة للحسنة بعشر أمثالها لا بد منه والزيادة على ذلك تكون بحسب إحسان الإسلام وإخلاص النية والحاجة إلى ذلك العمل وفضله كالنفقة في الجهاد وفي الحج وفي الأقارب وفي اليتامى والمساكين وأوقات الحاجة إلى النفقة» «جامع العلوم والحكم» (ص١١٦).

عن أبي كبشة الأنماري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ» - يتقي فيه: أي في المال ربه - «وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ»؛ عنده مال وعنده علم يعني عنده فقه في دين الله، فلا يوجه هذا المال إلا في ضوء العلم والبصيرة التي عنده في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، قال: «فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»، الله أكبر! أعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذه النية الصالحة الصادقة العظيمة التي قامت في قلبه قال: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»، ثم قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ» -لا علم له وعنده مال- «وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ».[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «فَهَذَا التَّسَاوِي مَعَ (الْأَجْرِ وَالْوِزْرِ) هُوَ فِي حِكَايَةِ حَالِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ وَكَانَ صَادِقًا فِيهِ وَعَلِمَ اللهُ مِنْهُ إرَادَةً جَازِمَةً لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْفِعْلُ إلَّا لِفَوَاتِ الْقُدْرَةِ؛ فَلِهَذَا اسْتَوَيَا فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَلَيْسَ هَذِهِ الْحَالُ تَحْصُلُ لِكُلِّ مَنْ قَالَ: (لَوْ أَنَّ لِي مَا لِفُلَانِ لَفَعَلْت مِثْلَ مَا يَفْعَلُ) إلَّا إذَا

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٤).

كَانَتْ إِرَادَتُهُ جَازِمَةً يَجِبُ وُجُودُ الْفِعْلِ مَعَهَا إِذَا كَانَتْ الْقُدْرَةُ حَاصِلَةً وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَقُولُ ذَلِكَ عَنْ عَزْمٍ لَوْ اقْتَرَنَتْ بِهِ الْقُدْرَةُ لَانْفَسَخَتْ عَزِيمَتُهُ كَعَامَّةِ الْخَلْقِ يُعَاهِدُونَ وَيَنْقُضُونَ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ عَزْمًا جَازِمًا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَعَدِمَ الصوارف عَنْ الْفِعْلِ تَبْقَى تِلْكَ الْإِرَادَةُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ الْمُقَارِنَةِ للصوارف»[1].

يعني: ليس الأمر بمجرد قول هذه الكلمة، إلا إذا كانت إرادته جازمةً يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، فإذا كانت النية قامت في القلب بهذا المستوى، وبهذا الصدق مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبهذا الصلاح في النية مع الله عَزَّوَجَلَّ وفي قلبه إرادة جازمة فعلًا لو كان عنده من المال مثل فلان لفعل مثله، والله جَلَّ وَعَلَا يعلم ما في القلوب، وما تنطوي عليه النفوس؛ فإذا كان الشخص بهذه الصفة كان له من الأجر مثل أجر ذلك المنفق، مع أنه لم ينفق شيئا! لكن بما قام في قلبه من نية صادقة، وحرصٍ عظيمٍ على الثواب.

وأيضًا بالمقابل ذلك الشخص الذي لم يفعل المعصية، لكن قام في قلبه نية أكيدة، وعزمٌ أنه لو حصل له من المال مثل ما حصل لفلان لفعل مثله ولا يرده عن هذا العمل إلا أنه ليس عنده مال مثل ذلك الشخص، قال: فهما في الإثم سواء.

فهذا من أيضًا الأبواب العظيمة في هذا الباب: النية الصالحة الصادقة التي

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٣٤).



تقوم في قلب الشخص يبلغ بها المبالغ العالية والمنازل الرفيعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: الحديث الذي سبق الإشارة إليه: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ».(١)

فقد يلقي الإنسان الكلمة لكن يكون ناصحًا فيها مخلصًا لله، ولا يدخل في صالح عمل العبد إلا ما أخلص فيه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فيكون ناصحًا فيها مخلِّصا لله لا يلقي لها بالًا، لكن يترتب عليها من الخير والنفع والفائدة والآثار العظيمة ما لا يعلمه، ورب العالمين جَلَّ وَعَلَا يعلمه ويرفعه بها عالي الدرجات.

أحيانًا بعض الناس في مقام من المقامات يلقي كلمة لشخص، ولا يظن أنها تبلغ فيه ذلك المبلغ، فتجد هذا الشخص يستفيد، ويُفيد آخرين، والآخرين يفيدون آخرين، وهذا الذي كان سببًا في ذلك كله لم يعلم ذلك، ولم يبلغه ذهنه، لكن أجوره تتسلسل وتتضعَّف وتزيد عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وترتفع بها درجاته، وهو قال تلك الكلمة لم يلقي لها بالًا.

فالشاهد: أن باب التَّضعيف باب عظيم ومبارك جدًا، وينبغي للمسلم الحصيف أن يتفقه فيه، والإمام ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفتوى يفتح الأبواب ويضع القواعد والتأصيلات النافعة التي تضيء للعبد المسلم طريقه في هذا الباب: باب تضعيف الأجور، والموفَّق من عباد الله من يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

(ومن أسبابها: رفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام، فإن الله تعالى شكور حليم؛ لهذا كان نساء النبي أجرهن مضاعفًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣١]، **وكذلك العالم الرباني، وهو العالم العامل المعلم، تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله.**

كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب، كان أعظم من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرز، ولما يجب من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم).

الشَّرح

إذا أكرم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عبده بفهم هذا الأمر والبصيرة فيه، والعمل بمقتضى ذلك، فإن ما يقع منه من عملٍ قليلٍ ينال عليه الثواب الجزيل، لأنه في ضوء ما مر معنا قد يكون العاملان في عملهما صورة عملهما واحدة، لكن تتضاعف الأجور لأحدهما ما لا يكون مثله ولا نظيره ولا قريب منه للآخر، بسبب ما قام في قلبه من الإيمان والإخلاص والصدق مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فحريٌّ بكل مؤمن أن يُعنى بهذه الأسباب معرفةً وتطبيقًا.

وقد مر معنا من أسباب قوله رحمه الله تعالى: **(أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مُصرٍ على شيء منها، فإن أعمال**

هذا مضاعفة كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ...»؛[١] الحديث)؛ وهو حديثٌ اتفق على إخراجه الشيخان الإمام البخاري والإمام مسلم في «صحيحهما» رحمهما الله تعالى.

وهذا يفيد أن من يكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسن الإسلام، وحسن الهدي، وحسن الاتباع للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون بعيدًا عن الأعمال الحقيرة، والتصرفات المشينة، وبعيدًا عن الفواحش والآثام، نائيًا بنفسه عنها، من كان كذلك فهو حريٌّ أن يضاعف أجره وثوابه عند الله؛ لأن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»؛ أي: أن هذا بابًا من أبواب التضعيف للأعمال عندما يكون الإنسان بعبارتنا المعاصرة (ملتزمًا)؛ أي متمسكًا بالطريق على الجادة، على الهدي حريصًا على الاتباع والاهتداء بهدي النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-، بعيدًا عن الأمور الرديئة، والتصرفات المشينة، محافظًا على الهدي، وعلى الوقار، والاتباع والاتساء، فإن مثل ذلك حريٌّ بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يضعف له الأجر في عمله كما قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ».

يدخل في هذا الباب من ذكره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السبعة الذين يظلهم الله في

(١) رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

ظله يوم لا ظل إلا ظله قال: «شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ»؛[1] لأن الغالب الأعم في الشباب أن تكون لهم صبوة، وأن تكون لهم نزوة، وأن يكون لهم شيء من الانحراف والانفلات هنا وهناك، ولكن إذا أكرم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العبد ونشأ في طاعة الله محافظًا، ملتزمًا، مستقيمًا على طاعة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فإن مثل هذا حريٌّ بهذا المقام الكريم الذي ذكره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث وأخبر أن له بـ: «كُلّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ».

ثم قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ومن أسبابها)**؛ أي: أسباب التضعيف في الثواب والأجر: **(رفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام)**؛ أي: أن من كان بهذا الشأن، رفيع المقام، عليّ الشأن، له منزلته وله مكانته عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وله مقامه العالي الرفيع في الإسلام؛ نُصرةً له وذبًا عن حماه، وعملًا على انتشاره، يقدم ويبذل ويجد ويجتهد، فعلى مقامه في الإسلام، وعلت مكانته فيه؛ فإن من كان كذلك فإنه حريٌّ بأن يُضعف له أجره لعلو مقامه، وعلو مكانته ومنزلته.

قال: **(فإن الله تعالى شكورٌ حليمٌ)**؛ أي: من أسمائه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الشكور، ومن دلائل هذا الاسم هذا المعنى الذي أشار إليه رحمه الله تعالى؛ وهو أنه من كان له قدم صدقٍ، ومكانة- وله المقام العالي في الإسلام؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يشكر له عمله ويجزيه على القليل من أعماله الثواب الجزيل والأجر المضعف.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).



وإيراده أيضًا لاسم الله الحليم هنا: أي: أن من كان كذلك حقيقٌ بأن يظفر ويفوز من حلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه، ولطفه به جَلَّ وَعَلَا ما لا يكون مثله لغيره.

ثم ذكر شاهدًا على ذلك، وهو مقام نساء النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ذلك المقام العلي الرفيع، أولئك النسوة اللاتي اختارهن الله جَلَّ وَعَلَا ليكن زوجاتٍ لأشرف عباده وأفضلهم عنده - صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [سورة النور، من الآية:٢٦]؛ وهذا المعنى الذي ذكر في هذه الآية لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منه الحظ الأوفر، لأنه إمام الطيبين - صلوات الله وسلامه عليه -، فيكون له خير الطيبات صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنساؤه خير النساء -صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عنهن أجمعين-.

ولهذا أكرمهن الله عَزَّوَجَلَّ لما شرفهن بأن كن زوجات لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكرمهن بأن صرن أمهات للمؤمنين.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٦]؛ والأمومة هنا أمومة دينية؛ تقتضي الاحترام والتوقير ومعرفة الحق والمقام والقدر، أي: هؤلاء النسوة اللاتي هن زوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهن هذا المقام العالي والمنزلة الرفيعة، وهن أمهات لجميع المؤمنين والمؤمنات.

وقول ربنا جل شأنه: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ؛ تنبيه لعلو مقام زوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهن، ورفعة مكانتهن ومنزلتهن، وأن حقهن مثل حق

الأمهات بل أعلى وأرفع من الاحترام والتوقير، ومعرفة القدر والمكانة والقيام بحقوقهن -رضي الله عنهن وأرضاهن-.

فهذا المقام مقام عالٍ في الإسلام، ثم من جهةٍ أخرى هن في مقام القدوة والأسوة للمؤمنين؛ لأن كثيرًا من الأحكام الفقهية والأمور التي تتعلق بالمعاملة الزوجية وحقوق الزوجات والأمور التي تتعلق بأحكام النساء كثير منهن إنما بلغت الأمة عن طريق أزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رضي الله عنهن وأرضاهن.

فإذًا هنَّ أيضًا في مقام القدوة للأمة، فلهن مقام عالي جدًّا ورفيع في الإسلام، فلما كنَّ بهذا المقام وبهذه المنزلة العلية قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣١]؛ مضعف الأجر، لا يكون الأجر على العمل أجرًا واحدًا بل يكون أجرًا مضعفًا، ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، لأنهن في هذا المقام العالي.

قبل ذلك ذكر الله عَزَّوَجَلَّ التخيير الذي خير فيه أمهات المؤمنين زوجات النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٢٨-٢٩]؛ فاخترن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ الله ورسوله والدار الآخرة.

ثم قال جَلَّوَعَلَا بعد ذلك: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ هذا تنبيه للمقام العالي الذي تبوأنه، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ظاهرة ﴿مَن يَأْتِ

مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا [سورة الأحزاب، من الآية:٣٠-٣١]؛ أي: ثوابًا عاليًا وأجرًا جزيلًا في جنات النعيم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٢]؛ بهذا القيد، والله جَلَّ وَعَلَا أكرمهن بالتقوى والإيمان والطاعة والعمل الصالح، وكن قدوة لنساء المؤمنين؛ ففزن بالأجر المضاعف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

وفي الباب: إيتاء الأجر مرتين ورد آيات وأحاديث كثيرة، جمعها أحد أهل العلم وهو السيوطي رحمه الله تعالى في كتابٍ مطبوعٍ سمَّاه «مطلع البدرين فيمن يُؤتى أجره مرتين»، وجمع الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب، وأول ما بدأ بزوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهن أجمعين.

ثم لما جمع الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب ختم ذلك بمنظومة له رحمه الله تعالى نظم فيها من ورد في النصوص ذكر أنهم يؤتون أجرهم مرتين.

فالشاهد من ذلك: أن من مقام التضعيف في الثواب؛ المقام العالي في الإسلام والمكانة الرفيعة فيه، كما هو الشأن في زوجات النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: لهذا كان نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجرهن مضاعف، الدليل: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، والسبب في ذلك المقام العالي الذي تبوأنه، فهنّ أمهات

المؤمنين، وقدوة لنساء المؤمنين، وهن أيضًا اللاتي أكرمهن الله عَزَّوَجَلَّ بنقل الكم الهائل الكثير من أحاديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأحكامه، ولا سيما ما كان منها مختصًا بأحكام النساء.

قال رحمه الله تعالى: (**وكذلك العالم الرباني**)؛ أي ممن يضعف له أجره وثوابه لرفعة مكانه، ومقامه العالي العالم الرباني.

والله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذكر في آيات رفعة مقام العلماء؛ كقوله: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [سورة المجادلة، من الآية:١١]، وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٩]؛ والآيات في هذا كثيرة.

فالعالم الرباني: هو أيضًا ممن يكرمه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهذا التضعيف في الأجر والثواب، **من هو العالم الرباني؟**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**العالم الرباني هو العالم العامل المعلم**)؛ العالم الرباني هو الذي جمع هذه الصفات الثلاث يكون بذلكم عالمًا ربانيًا.

الصفة الأولى: أن يكون عالمًا: أي عنده علم وبصيرة وفقه في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ودراية ومعرفة بشرع الله عَزَّوَجَلَّ.

الصفة الثانية: أن يكون عاملًا: ليس الشأن عنده علم بالعمل فقط؛ بل علم وعمل، فقه في دين الله وعمل في طاعة الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وما يرضيه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والصفة الثالثة: أن يكون معلمًا: أي: يوصل هذا الخير الذي أكرمه الله به،



ومنَّ عليه به، يوصله للآخرين ويهديه للآخرين نصحًا وتعليمًا وتوجيهًا ودعوةً وإرشادًا.

فهذا هو العالم الرباني الذي جمع بين العلم والعمل والدعوة، وهذه الأمور الثلاثة كلها مجتمعة في السورة التي وصفها عمرو بن العاص بأنها سورة وجيزة بليغة،[1] سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ① إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ③﴾ [سورة العصر].

قال: **(وهو العالم العامل المعلم، تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله)**؛ منبهًا بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن العلماء العاملين الداعين إلى الله متفاوتون، ليسوا في رتبة واحدة؛ فيتفاوت أجرهم وثوابهم عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بحسب مقامهم عنده ومنزلتهم عنده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فهم ليسوا في رتبة واحدة، قال: **(بحسب مقامه عند الله، كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب كان أعظم من غيرهم)**.

ماذا قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في نساء النبي؟ قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٠]. لماذا؟

هذا الذي ذكره الشيخ: **(كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم ذنب كان أعظم من غيرهم)**.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٣).

لماذا كان أعظم من غيرهم؟ لأنهم أصبحوا في هذا المقام العالي وفي هذه المنزلة الرفيعة وأصبحوا قدوة للناس، ولهذا ترى في كثير من العوام والجهال -وإن كان هذا لا يعتبر عذرًا لهم، ولا مسوغًا ولا مبررًا- إذا أراد أن يستدل على مخالفة يمارسها، أو خطإٍ يفعله؛ يذكر أحدًا عالي المقامة، أو معروفًا بالمكانة العالية والمنزلة الرفيعة يقول: فلان يفعل ذلك.

وهذا ليس بحجة، ولا يجوز الاستدلال بهذه الطريقة، ولا يجوز أن تتبع العثرات وتجعل دليلًا، وهذا من أسوأ الطرائق في الاحتجاج والاستدلال، وكثيرًا ما يرد مثل هذا على ألسنة العوام والجهال، يقول: فلان يفعل ذلك، أو رأيت فلانًا يفعل ذلك؛ وإن كان فعل ذلك، فالناس تخطئ وتصيب.

الإمام مالك رحمه الله تعالى يقول: «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»؛ يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: «كل قائل إنما يحتج لقوله لا به إلا الله ورسوله ﷺ»[(١)].

فالعالم والشخص الذي أصبح له مكانة ومنزلة أصبح موضع قدوة للناس، فالخطأ الذي يقع منه يؤثر على الآخرين تأثيرًا بالغًا، ولهذا اشتهرت مقالة ولها نصيبها من الصحة وهي: (زلة العالِم، زلة العالَم)، العالم ينظرون دائمًا للعلماء وذوي المقامات الرفيعة والمكانات العلية، ويفعلون مثلهم، فهنا ثمة خطورة

---

(١) انظر: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» (ص ٢٩).

بالغة جدًا في الشخص الذي له مقام عالٍ ومنزلة رفيعة ومكانة عالية، الخطأ منه ليس كالخطأ من غيره.

ولهذا لا بد في هذا المقام أن أضرب مثالًا وأؤكد عليه نصحًا وإبراءً للذمة:

بعض من يكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بالاغتراب إلى هذا البلد مثلا، بلد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدراسة، ويعيش في هذا البلد دارسًا أربعة سنوات المرحلة الجامعية أو أكثر من ذلك، والمراحل الأخرى ست سنوات، سبع سنوات..، فعندما يرجع إلى بلده، كيف ينظر الناس إليه؟ من أقربائه وجيرانه وأهل حيه وأهل منطقته، وقد عاش متعلمًا دارسًا متفقهًا في المدينة النبوية هذه المدة، وقد جاءهم بعد هذه الرحلة الطويلة في التحصيل والطلب.

الأمر ليس هينًا، فعندما يأتي فإن الناس ترقبه في أعماله، فإذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ويفتقدونه، المرة والمرتين والثلاث والأربع، وإذا جاء يأتي في آخر الصف، ما يجدونه قريب من الإمام، يجدونه في آخر الصف.

فاتته الركعة والركعتان والثلاث، وأحيانًا يغيب وأحيانًا ينام عن الصلاة، وإذا جلس معهم في المجالس ما يرون عليه وقار العالم، ومكانة العالم، وأدب طالب العلم، فكيف تكون حاله مع الناس؟ وماذا سيقولون؟!.

أليس يقولون: إذا كان هذا الذي عاش في المدينة النبوية وطلب العلم وهو متهاون في الصلاة أنا من باب أولى!

وإذا كان في المدينة وفى بلد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعاش هذه المدة أنا من

باب أولى إذًا، أما -والعياذ بالله- إن كان أيضًا دخل في شيء من الفواحش أو في شيء من الآثام أو في هذه الأمور فكوارث تعتبر، كوارث عظيمة جدًا ويجني على نفسه وعلى خلق الآخرين، وتجد العوام والجهال والسفهاء يقولون: أبدًا لا عليكم انظروا فلان عاش في المدينة كذا وكذا سنة، وها هو شيء من أعماله السيئة، فالأمر خطير جدًا! يا من أكرمك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالاغتراب إلى هذا البلد، وأكرمك الله بأن تعيش في هذه الأماكن المباركة للعلم والتعلم والتفقه، وقد عرف أهل بلدك أنك رحلت إلى هذه البلاد لهذا الغرض، ثم عدت إليهم؛ اتق الله في نفسك وفي إخوانك.

واحذر أن تكون قدوة في غير الخير، وفي غير ما يرضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعلم أنك في موضع القدوة للآخرين، وأن كثيرًا من الناس حتى وإن لم يتحدثوا عنك يرمقونك بأبصارهم، بل وبعض الفساق في بلدك يتحرون منك الزلة والزلتين حتى يهدموا بزلتك كل أعمالك، ويحاول من خلالها الإساءة إليك وإلى مكانتك ومقامك، فالأمر ليس بالهين من هذه الناحية.

ومن ناحية أخرى إذا افتقدوك مرات في الصلوات، ورأوا عليك أشياء من المخالفات، إذا جئت يومًا تحدثهم بما حصَّلته من علم، أو تخطب فيهم، أو تعظهم، أيُّ وقع سيكون لخطبتك وموعظتك في نفوسهم وقد عرفوك؟! نمت عن صلاة الفجر! وبعد العصر تأتي تحدثهم، وهم يعرفونك نمت ذاك اليوم عن صلاة الفجر، واليوم الآخر والثالث وغير ذلك، أي وقعٍ سيكون لهذه الموعظة



في نفوسهم؟!

وأذكر مرةً أحد العوام في منطقة من المناطق-وهو من العُبَّاد-، مررت عليه في مسجده الذي يصلي فيه ويجلس فيه بعد الصلاة؛ قلت: ما شاء الله حيكم هذا فيه مجموعة من طلاب العلم، قال: حينا هذا! قلت: نعم، قال: اسمع يا ولدي! من لم يحافظ على الصلاة هذا ما هو طالب علم اتركنا عنهم، هذه مصيبة، هذه مصيبة عظيمة.

فالباب من جهتين: طالب العلم ومن أكرمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالمكانة والمنزلة، إن كان محافظًا متقيًا لله عاملًا بطاعة الله؛ فهو حريٌّ بإذن الله بأن يضعف له أجره وثوابه، لأنه أصبح في موضع القدوة للآخرين.

وإذا كان -والعياذ بالله- على عكس من ذلك وعلى النقيض، فهو حريٌّ بأن يعاقب مثل ما ذكر الإمام عبد الرحمن بن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (**إذا وقع منهم الذنب كان أعظم من غيرهم**)؛ ما السبب؟

قال: (**لما يجب عليهم من زيادة التحرز**)؛ هذا الذي هو بهذا المقام العالي، عندما يتحرز من الخطأ، يتحرز من الخطأ لأمرين:

الأمر الأول: لنفسه ليسلم من الخطأ وعقوبته.

الأمر الثاني: ليسلم من أن يكون قدوةً في الشر، وأن الناس تقول: إذا كان فلان وهو بهذا المقام إذًا أنا من باب أولى، فيسلم من هذا ومن هذا.

فإذًا يلزمه من التحرز والتوقي أكثر من غيره؛ لأنه أصبح في هذه المقامة



العلية، والمنزلة الرفيعة، هذا من جهة.

قال: (**ولما يجب من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم**)؛ مقامهم هذا يقتضى مزيد الشكر لله على ما خصهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به من النعم.

ومزيد الشكر يكون بمزيد العمل، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سورة سبأ، من الآية:١٣]؛ فيكون الشكر مزيد العمل، مزيد الطاعة والتقرب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا هذا بابٌ عظيمٌ من أبواب التضعيف؛ وهو رفعة العامل عند الله ومقامه العالي في الإسلام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن الأسباب: الصدقة من الكسب الطيب، كما وردت بذلك النصوص).**

الشرح

قال رحمه الله تعالى: (**ومن الأسباب**)؛ أي: التي يضعف بها الأجر والثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (**الصدقة من الكسب الطيب**)؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا طيب لا يقبل إلا الطيب، والطيب اسم من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي كل مرة نصلي نقول في صلاتنا: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ»[1]، أي: الطيبات لله، فالله عَزَّ وَجَلَّ طيب لا يُتقرب إليه إلا بالطيب، ولا يقبل إلا الطيب، فالطيبات لله، فهو طيب لا يقبل إلا طيبًا، ودار كرامته الجنة هي دار الطيبين ولا يدخلها إلا الطيب، قال الله

(١) رواه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

تعالى: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا﴾ [سورة الزمر، من الآية:٧٣]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ طيبٌ لا يقبل إلا الطيب.

ولهذا جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»[1]، من تصدق بعدل تمرة يعني قدر يسير جدًا وزن تمرة أو ما يعادل التمرة، «وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ»،هذا المعنى أو المثل الذي ذكره: «كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ»، أو «كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ»؛ هذا المثل يعرفه أصحاب الخيل، ومن لهم عناية بالخيل وتربية الخيل.

فصيل الخيل؛ أي: ولده الصغير، صاحب الخيل يُعنى به عناية عجيبة جدًا، ويعمل على تربيته وإطعامه وتنميته وإزالة الأشياء المؤذية له، ويراقبه ويتابعه، ويتابع صحته، واسألوا في هذا الباب أهل الخيل يفيدونكم، قال :«يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ»، وفي رواية: «فَصِيلَهُ».[2]

---

(١) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أهل اللغة: الفلو: المهر سمي بذلك لأنه فلى عن أمه أي: فصل وعزل؛ والفصيل: ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه» «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/ ٩٩).

أصحاب الخيل لهم عناية دقيقة جدًا، ولصغار الخيل مكانة في النفوس عجيبة في نفوسهم، ولهذا ذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا المثل تحديدًا، لم يذكر بهائم الأنعام الأخرى، وإنما ذكر الخيل تحديدًا؛ لأن ثمة أمر عالي جدًا، وأمر متميز يعرفه أهل الخيل، «حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ»؛ أي: تمرة أو ما يعادل تمرة من كسب طيب تكون يوم القيامة مثل الجبل، هذا تضعيف؛ تمرة يجدها صاحبها يوم القيامة مثل الجبل، تضعيفٌ في الأجر والثواب إلى هذا القدر العظيم، ولهذا قال: **(ومن الأسباب: صدقة من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص)**.

مما جاء في هذا المعنى في القرآن قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٧٦]؛ يربيها: أي: ينميها ويبارك فيها، ويعظم أجرها وثوابها وجزائها عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

ولهذا الصدقات لا تنقص المال، «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1]،الصدقة تزيد المال وتبارك فيه وتنميه، والربا وإن كان صاحبه يتخيل أنه يضاعف أمواله ويزيدها، هو في الحقيقة يمحق المال، وتبعًا لمحقه المال يمحق أمورا كثيرة من ضمنها الصحة، صحة صاحبه ونفسيته وفكره وعقله، وربما دينه، محق - والعياذ بالله- بينما الصدقة كما قال جل شأنه: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).



وأيضًا مما جاء في هذا المعنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٤٥]؛ أي: الرجعة إلى الله والمآب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيجزي الذين أحسنوا بما عملوا، ويثيبهم عظيم الثواب على إحسانهم، نفقاتهم، صدقاتهم، بذلهم، جودهم.

مما أيضًا جاء في هذا المعنى التضعيف، وهي من الشواهد الواقعية: قصة عثمان وهي في «مسند الإمام أحمد»و«سنن الترمذي» وغيرهما بإسنادٍ جيد، لما جهز النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جيش العسرة، وجاء عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بألف دينار يحملها في كمه فوضعها في حجر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأخذ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقلبها بيده، ويقول: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ»[١]، تأمل هذه الصدقة العظيمة التي ترتب عليها هذا الثواب، وهذا الغفران، وهذا الأجر العظيم حتى قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ».

كذلكم ما جاء في «المسند» للإمام أحمد وغيره بسندٍ جيد عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِفُلاَنٍ نَخْلَةً وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ »، فَأَبَى؛ فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي، فَفَعَلَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٦٣٠)، والترمذي (٣٧٠١)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٦٠٦٤).

اللهِ إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي.

قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَهَا مِرَاراً، قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ؛ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَ[1].

فالرجل جاء إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يلتمس منه مساعدة، عنده بستان، وتوجد نخلة لشخص آخر يحتاج إليها حتى تقيم حائطه، فجاء يلتمس من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يطلب من صاحبها أن يعطيها له، الحائط: هو البستان، ونخلة واحدة كانت تشكل على استقامة الحائط، فذهب إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطلب منه أن يكلم صاحبها يعطيها لصاحب الحائط حتى تقيم حائطه، فطلب منه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذلك فأبى صاحب النخلة، فأبو الدحداح الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه سمع الخبر وذهب إلى صاحب النخلة، وقال: أنا اشتري منك نخلتك هذه بحائطي، عنده بستان وقال: أنا أشتري منك نخلتك هذه بحائطي، أي: ببستاني، قال: قبلت، فاشتراها منه بحائطه، بستان كامل اشترى به نخلة واحدة، ثم ذهب إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال له: يا رسول الله! إني اشتريت نخلة فلان بحائطي وإني أعطيك إياها لتعطيها ذلك الرجل، فقبلها منه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأعطاها لذلك الرجل وقال، وكرر ذلك مرارًا -صلوات الله

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٤٨٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٦٤).



وسلامه عليه- قال: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»، رداح: عظيم وعال ومرتفع، ومات أبو الدحداح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما جاء في «صحيح مسلم» في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وشهد جنازته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأعاد هذه الكلمة لما دفنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورضي الله عن أبي الدحداح وعن غيره من أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنِ الدَّحْدَاحِ: ثُمَّ أُتِيَ بِفَرَسٍ عُرْيٍ فَعَقَلَهُ رَجُلٌ فَرَكِبَهُ، فَجَعَلَ يَتَوَقَّصُ بِهِ، وَنَحْنُ نَتَّبِعُهُ، نَسْعَى خَلْفَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُعَلَّقٍ - أَوْ مُدَلًّى - فِي الْجَنَّةِ لِابْنِ الدَّحْدَاحِ» أَوْ قَالَ شُعْبَةُ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ[1].

أبو الدحداح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما صنع هذا الأمر، ذهب إلى البستان وفيه أولاده وزوجته وباعه بتلك النخلة، والنخلة أيضًا لن يملكها ستعطى لشخص آخر، وإنما بنخلة في الجنة طمع في هذا الأجر، فجاء إلى زوجته ومعها أولاده في بستانه وناداها: يا أم الدحداح أخرجي من الحائط، فإني بعته بنخلة في الجنة، ماذا قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؟ هل قالت: أين نذهب نحن والأولاد وأين كذا إلى آخره؟! قالت: ربح البيع، وخرج من حائطه لما قام في قلبه من هذه الرغبة العظيمة وتحري هذا الثواب الجزيل والأجر العظيم.

ولهذا لما قرب من قبره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كَمْ مِنْ

---

(١) رواه مسلم (٩٦٥).

عِذْقٍ مُعَلَّقٍ - أَوْ مُدَلًّى - فِي الْجَنَّةِ لِابْنِ الدَّحْدَاحِ»[١] فهذا كله داخل في هذا الباب؛ باب الثواب المضعَّف، والقصة نفسها -قصة أبي الدحداح- تروى بإسنادٍ فيه كلام في نزول قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾، عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، جاء ابن الدحداح إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ألا أرى ربنا يستقرضنا؟ مما أعطانا لأنفسنا! وإن لي أرضين: إحداهما بالعالية، والأخرى بالسافلة، وإني قد جعلت خيرهما صدقة! قال: فكان النبي ﷺ يقول: «كم من عذق مذلل لابن الدحداح في الجنة!»[٢]

لكن الذي ثبت به الإسناد في قصة أبي الدحداح هو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»، الذي ثبت به القصة في هذا الباب؛ قصة ذلك الذي جاء إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يطلب تلك النخلة؛ ليقيم بها بستانه إلى آخر ما مر معنا.

فالشواهد في هذا المعنى كثيرة فمن أسباب التضعيف: **(الصدقة من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص)**؛ ولا يحقرن العبد من المعروف والبذل شيئًا، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث آخر: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»،[٣] فلا

---

(١) رواه مسلم (٩٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٦١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٣٠).

(٣) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

يحقرن العبد من المعروف شيئًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: شرف المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة**).

الشرح

قال رحمه الله تعالى: (**ومنها**)؛ أي أسباب التضعيف، (**شرف المكان**)؛ أي: أن يكون للمكان شرف خاص وفضل خاص ومكانة خاصة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجتبي ويصطفي ما يشاء ويختار من الأمكنة والأزمنة والأشخاص، يشرف ما شاء بمزيد فضل ومزيد مكانة ومزيد قدرٍ، فالله عَزَّوَجَلَّ شرف بعض الأمكنة بمزيد فضله.

ومثل الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك بالمساجد الثلاثة التي جمعها النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[(١)]، رتبها على حسب الأفضلية، فهذه المساجد الثلاثة يضعف الثواب فيها ما لا يضعف في غيرها، تشريفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذه الأمكنة الثلاثة، وقد ثبت في الحديث أن المسجد الحرام تضعف فيه الصلاة بمئة ألف صلاة، مثلا: إذا تنفلت وصليت ركعتين في المسجد الحرام، كم يكون ثوابها؟ تعدل مئة ألف صلاة في غيره، وإذا صليت الجماعة في المسجد الحرام فكم تكون؟ مئة ألف صلاة؛ هذا شرف المكان، والجماعة بسبع وعشرين، فصلاة الجماعة مضعفة أضعاف عظيمة

---

(١) رواه البخاري (١١٨٨)، ومسلم (١٣٩٧).

جدًا في المسجد الحرام.

والمسجد النبوي الصلاة فيه بألف صلاة، لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»(١)، إذًا المسجد الحرام بمئة ألف، ومسجد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بألف صلاة، والمسجد الأقصى بكم صلاة؟ المشهور عند كثيرٍ من الناس أن الصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، وهذا ورد فيه حديث ضعيف أن الصلاة فيه بخمسمائة صلاة، لكن الذي ثبت في «مستدرك الحاكم»، وأيضًا في «المعجم الأوسط» للطبراني وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: تذاكرنا عند النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فضل المسجد النبوي والمسجد الأقصى، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ»(٢)، والمسجد النبوي بألف، فإذا كان أفضل من أربع صلوات فيه؛ فتكون الصلاة في المسجد الأقصى بمائتين وخمسين صلاة، هذا هو الثابت وهو بخلاف المشهور عند كثير من الناس، فالصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف، والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة، والصلاة في المسجد الأقصى بمئتين وخمسين صلاة؛ هذا تضعيف من جهة المكان.

---

(١) رواه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٨٥٥٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١١٧٩).

وبالمناسبة هذا تذكير لإخواني الذين يكرمهم الله بالمجيء إلى المدينة النبوية، أو إلى مكة المكرمة، فبعضهم قد يُشغل عن نيل هذا الثواب المضعَّف، ويذهب إلى أماكن أو مساجد لم تُشرع أصلا زيارتها لعدم وجود الدليل على ذلك، ويظنون أنهم ينقلون إلى طاعات وعبادات، بينما كبير السن لو وجه الوجهة الصحيحة وقيل له: هذا المكان تبقى فيه لا تتعب بدنك، ولا تجهد نفسك، واحفظ وقتك في الحرمين، وفي الجلوس في هذا المسجد تنتظر الصلاة بعد الصلاة، صلِّ فيه نافلة ما تيسر لك، ولك الثواب المضعف، فيرتاح من التنقلات التي تجهده ماليًا وبدنيًا، ويفوت عليه هذه الغنيمة العظيمة، والربح الكبير عندما يبقى في هذا المسجد منتظرًا الصلاة بعد الصلاة، وهذا هو الرباط كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[1].

وإن تيسر له أن يتنفل ويقرأ من كتاب الله، ويذكر الله؛ فهذا خير له وأفضل.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**ومنها شرف الزمان، كصيام رمضان وعشر ذي الحجة ونحوها**).

الشرح

أي: من أسباب تضعيف الأجور والثواب شرف الزمان؛ أي: أن يكون الزمان

---

(١) رواه مسلم (٢٥١).

فاضلًا، ومثَّل رحمه الله تعالى على ذلك ببعض الأمثلة، قال: (**كرمضان**)؛ ورمضان خير شهور السنة، وهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، قال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٥].

فهو شهر فضَّله الله وميَّزه على سائر الشهور، والعشر الليالي الأخيرة من رمضان هي خير ليالي السنة، وفيها ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر، فانظر هذا التضعيف، فيه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [سورة القدر، من الآية:٣]، وهي الليلة التي أُنزل فيها القرآن، ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [سورة القدر، من الآية:٣]؛ ألف شهر بحساب السنوات أكثر من ثمانين سنة، أي: العمل في تلك الليلة خيرٌ من العمل في أكثر من ثمانين سنة ليس فيها ليلة القدر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: شرف الزمان، كرمضان وعشر ذي الحجة ونحوها. والعبادة في الأوقات التي حث الشارع على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها، وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **المكمّل - مع الإخلاص - للأعمال، المنمّي لثوابها عند الله**).

الشَّرح

هذا كما عرفنا بيان لسبب من أسباب تضعيف الأجر؛ ألا وهو شرف الزمان، ومثَّل لذلكم ببعض الأمثلة قال: (**كصيام رمضان، وعشر ذي الحجة**)؛ وقد ثبت في الحديث عن نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ

الْعَمَلِ فِي هَذِهِ»[(١)] أي: العشر الأول من شهر ذي الحجة، وقد اختلف أهل العلم أيها أفضل العشرة الأخيرة من رمضان؟ أو العشرة الأول من ذي الحجة؟ والتحقيق في ذلك كما قرره جماعة من المحققين من أهل العلم أن العشر الليالي الأخيرة من رمضان خير ليالي السنة، وفيها ليلة القدر خير ليالي السنة على الإطلاق، والعشر الأيام الأول من عشر ذي الحجة خير أيام السنة على الإطلاق، وفيها يوم عرفة خير يومٍ طلعت عليه الشمس، فالعشر الأول من ذي الحجة هي خير الأيام، والعشر الأخيرة من رمضان هي خير الليالي، فإذًا هذا تشريفٌ لأزمنة والثواب فيها مضعف؛ يعنى العشر الأول من ذي الحجة قال عنها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ»؛ أي أنه مضعف.

ومر معنا ما يتعلق برمضان ولا سيما ليلة القدر، ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [سورة القدر، من الآية:٣]؛ أي: العمل في تلك الليلة خير من العمل في ألف ليلة ليس فيها ليلة القدر.

قال: (**ونحوها، والعبادات في الأوقات التي حث الشارع على قصدها**)؛ معطوف على قوله: (**كصيام رمضان، ومنها شرف الزمان، كصيام رمضان، وعشر ذي الحجة والعبادات في الأوقات التي حث الشارع على قصدها**)؛ أي: من الأزمنة ما يتعلق بتضعيف الأجر في الأزمنة الفاضلة: (**العبادة في الأوقات**

(١) رواه البخاري (٩٦٩).

التي حث الشارع على قصدها)؛ ومثَّل لذلك بالصلاة في آخر الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح المتواتر عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1]؛ فهذا وقت شريف فاضل، وهو من أرجى أوقات إجابة الدعاء، وصيام الأيام الفاضلة كيوم الاثنين والخميس، وأيام البيض، وكذلك صيام يوم عاشوراء، وصيام يوم عرفة لغير الحاج، الإكثار من الصيام في شهر شعبان إلى غير ذلكم مما جاء في صيام أيام فاضلة جاءت الشريعة بالحث على العناية بالصيام فيها، قال: **(ونحوها)**.

قال: **(وهذا كله)**؛ أي: ما تقدم.

(راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**)**؛ وهنا ينبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تنبيهًا يحذر فيه من الزلل؛ لأن باب فضائل الأعمال سواءً منها المختص بالأزمنة، أو المختص بالأمكنة يدخله الخلل عند كثير من الناس، فتجد مثلًا في بعض الأزمنة الفاضلة يتعبد بعبادات غير مشروعة، وفي بعض الأمكنة الفاضلة يتعبد أيضًا بعبادات غير مشروعة فماذا يكون؟ هل يضعف له الأجر؟ لا، عمله يرد عليه ولا يقبل منه، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

فَهُوَ رَدٌّ»،[1] فإذًا هذا تنبيه عظيم في هذا المقام، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**راجع إلى تحقيق المتابعة**)؛ بمعنى: إذا كنت في زمن فاضل، أو كنت في مكان فاضل عليك بالاتباع، لا تقل: أنا في مكان فاضل وفي زمن فاضل سأعمل ما شئت من الأعمال أتقرب بها إلى الله، بل عليك أن يكون تقربك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شرع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهذا كله راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **المكمل مع الإخلاص للأعمال**)؛ بمعنى: أن العمل لا يكمل ولا يكون مشكورًا مقبولًا مرضيًا عند الله إلا بالإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تقدم عند الشيخ رحمه الله تعالى حديث عن هاذين الشرطين وأنهما أساس هذا الأمر، قال: (**المكمل مع الإخلاص للأعمال المنمي لثوابها عند الله**)؛ فالعمل لا ينمو ولا يعظم ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا إذا قام على الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**ومن أسباب المضاعفة: القيام بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية، فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر، كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفة، وأمثلة هذا كثيرة جدا، ولكن هذا ضابطها**).

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).



الشرح

الحديث لا يزال في بيان الأسباب في مضاعفة الأعمال، أو مضاعفة ثوابها وأجرها عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد أحسن الشيخ الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ في هذه الرسالة أو في هذه الفتوى في جمع الأسباب والأعمال التي يترتب عليها تضعيف الأجر والثواب عند الله جَلَّوَعَلَا.

فذكر أمورًا، ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ومن أسباب المضاعفة)**؛ أي: مضاعفة الثواب والأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ.

(القيام بالأعمال الصالحات عند المعارضات النفسية والمعارضات الخارجية)؛ أي: أن ثمة معارضات ترد على الإنسان فتجعله لا ينشط للعمل، ولا يقبل قلبه عليه وعلى فعله والقيام به، وهي كما قسمها رحمه الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

المعارضات النفسية: أي من داخل الإنسان تنبعث من الداخل وتثني الإنسان عن العمل.

وهذه المعارضات أو المؤثرات الداخلية كثيرة جدًا، والشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ أراد فقط أن يشير إشارة إلى القاعدة، وأشار في تمام حديثه إلى كثرة الأمثلة عليها، فمثلًا قد تقبل نفس الإنسان أو يسمع بفضيلة ما ويريد أن يفعلها؛ فتأتي هذه المعارضات النفسية فتجعله يتثبط عن العمل، مثلًا الكسل؛ فالكسل كم ثنى العبد والإنسان عن الأعمال الفاضلات، وكم ثناه عن أبواب الخيرات، وكم

منعه عن باب الترقي في الفضائل.

أيّضا من المؤثرات النفسية والمعارضات النفسية ما ينقدح في ذهن الإنسان عندما يُقبل على عمل ما أو سُنَّةٍ من السُّنن من مخاوف، فتجده يسمع بسُنَّة ثم يأتيه من الداخل مثبطات وعوارض تجعله يمتنع عن العمل، إذا فعلتها ماذا يقول عني أقربائي؟ ماذا يقول عني زملائي؟ ماذا يقول عني كذا؟ فتجده يترك العمل بسبب هذه المخاوف التي وردت على نفسه، فكانت هذه المخاوف معارضةً للنفس من أن تُقبل على العمل وتُقدم على الطاعة، أيضًا بعض الناس تجده يترك الخير خوفًا مثلًا على سمعته، أو رئاسته، أو مكانته، أو نحو ذلك، فتجده يترك أبوابًا من الخير عظيمة جدًا بسبب مثل هذه المخاوف، فثمة معارضات كثيرة جدًا تُقبل على الإنسان وتهجم عليه من أجل أن ينثني، والعبد بين أمورٍ ثلاثة ولا ينجو منها إلا من نجاه الله وكتب له العافية والسلامة:

١. الشيطان الرجيم -أعاذنا الله منه-.

٢. النفس الأمارة بالسوء.

٣. الدنيا بفتنها.

ولهذا قيل قديمًا: «لا تعجب ممن هلك كيف هلك؛ ولكن اعجب ممن نجا كيف نجا»[١]، أي: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا؛ لأن الأمور التي تصرف الإنسان وتصده وتثنيه كثيرة جدًا ومتعددة،

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

فإذًا هناك معارضات نفسية؛ أي: تنبعث من الإنسان نفسه من داخله، تثنيه عن العبادة، خذ مثالًا على ذلك مع الحديث الذي مر معنا قريبا: مما ورد في سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - والأمثلة على ذلك كثيرة - ألا وهو ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[١].

تأمل قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»؛ المكاره هي: المعارضات النفسية، الآن عندما يقوم الإنسان في الليلة الشاتية وفي البرد الشديد ويريد أن يتوضأ للصلاة، والجو بارد، والفراش الذي كان عليه دافئ لذيذ، والنفس تريد الفراش وتريد البقاء في الدفء وفي الراحة، ومنادي الصلاة ينادي: (حي على الصلاة، حي على الفلاح، الصلاة خير من النوم)؛ فتهجم هذه المعارضات، كم من إنسانٍ يسمع النداء وبسبب هذه المعارضات يبقى تحت بطانيته في الدفء؟! وتجده إذا أراد أن يرفع البطانية عن نفسه يقول: لا، الجو بارد، الماء بارد، إلى آخره وينقطع عن العمل، هذه معارضات نفسية.

«إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»؛ يعني: النفس تأتي تعارض الإنسان عندما يريد أن يقوم من هذا الدفء من أجل أن يصلي تبدأ هذه المعارضات تهجم

(١) رواه مسلم (٢٥١).

عليه، فإذا قام بكل عزيمة، وبكل نشاط، وبكل إقبال، وتوضأ، واتجه إلى بيت الله؛ فهذا له هذا الأجر المضعف كما قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله دُلَّنا على ذلك، فذكر لهم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه الخصال الثلاث، وبدأها بقوله: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»؛ إذًا هذا قسم من المعارضات التي تثني الإنسان عن العمل وهي المعارضات النفسية.

القسم الثاني: المعارضات الخارجية: يعني: المؤثرات التي تأتي الإنسان من الخارج، وهذه أيضًا نوع آخر وباب واسع، كم من إنسانٍ تعطل عن أعمال الخير بسبب قرناء السوء وخلطاء الفساد؟ كلما أقدمت نفسه على الخير ثناه قرناء السوء، أو كذلك الوسائل التي فُتحت على الناس في هذا الزمان من القنوات الفضائية، والمواقع التي في الإنترنت إلى غير ذلك، كم ينشأ منها وبسببها من معارضات تجعل العبد لا يقدم على الطاعة؟

أليس كثير من الناس يؤذن للصلاة ويقام [قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة] ويبقى مسمرًا عينيه في الشاشة؟ أليس هذا موجودًا؟ إذًا هذه الشّاشة الآن ماذا صنعت بهؤلاء وهم ليسوا بقليل؟ الصلاة التي أعظم فرائض هذا الدين بعد التوحيد تجد من الناس من يجلس أمام هذه الشاشة وأمام تلك القنوات، وبسبب ما ينشأ منها من معارضات يبقى ولا يقوم للصلاة ولا ينهضلها!

فإذًا المعارضات الخارجية كثيرة جدًا، فإذا قاومها العبد بإيمانه ولجوئه إلى

الله وبالاستعانة بالله، والجد، والصبر، والمصابرة، والمرابطة؛ هذا يكون أجره مضعفًا، ولهذا جاء في الحديث في «سنن الترمذي» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ».(١)

جاء في بعض الروايات أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»(٢)؛ فالتضْعيف «لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»، لأن هذا الشخص الذي وُجد في هذا الزمان الذي وُصف في الحديث: بأن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، تكون المعارضات الكثيرة التي تأتيه من هنا وهناك، فيقاوم ويقاوم ويصبر ويصابر ويرابط ويستعين بالله ومن يسلم من تلك المعارضات؛ يكون له هذا الثواب العظيم.

أذكر أحد الشباب في إحدى الدول، جرى حديثٌ حول المحافظة والاستقامة والثبات على الحق والهدى، فأخذ يكلمني بحُرقة وبألم شديد، يقول: أنا شاب في فوران وفورة الشباب، وإذا خرجت من بيتي لأي مصلحة حتى خروجي للمسجد لا يمكن أن أخرج إلا وأمامي الفتن العظيمة؛ ومنها فتنة النساء، يقول

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٠٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٧٢).



في بلدي تبرج فاضح.. إلى آخره، فيقول لا يمكن أن أخرج إلا وأمامي هذه المناظر، حتى يقول: لا يمكن أن أغض بصري إلا أن أُغمض عيني -هكذا يقول-، ويقودني شخص إلى المسجد، يقول: فتن تعصف.

فهذه الفتن لا يلتفت الشاب للشيطان الذي يوسوس له بأن النجاة مستحيلة ولا يمكن مقاومتها؛ بل من صدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولجأ وأحسن في الالتجاء إلى الله يسر الله له من أسباب النجاة والسلامة والتوفيق والبعد عن الفتن بأمور لا يحتسبها.

وهذه المعارضات إذا قويت على الإنسان وأخذ يقاوم ويصبر ويصابر فاز بأجر مضعف، وفاز بثواب عظيم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا مما يجعل الإنسان إذا قويت المعارضات لا ينهزم، بل يتذكر هذه المعاني العظيمة، وأنه بصبره ومصابرته ومرابطته بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يزيد أجره وثوابه عند الله عَزَّوَجَلَّ.

بل يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث له عن هذا المقام يقول: «كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه، هذه سنة الله في الخلق؛ فانظر إلى الجنة وعظمها وإلى الموانع والقواطع التي حالت دونها»[1] واقرأ شاهد كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»[2] إذًا هذه المكاره التي حفت بها الجنة، هي العوارض التي يتحدث عنها الشيخ هنا.

(١) «طريق الهجرتين» (٣٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٢٢).

فينبغي على العبد أن يتخطى هذه الأمور، وأن يجاهد نفسه، وأن يصبر ويصابر ويرابط مستعينًا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ليكون من المفلحين الفائزين.

ويقول أيضًا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي، بل هو فارغ منها؛ فإنه لا يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرائين، ولا يعارضهم الشيطان كما يعارض الصادقين، فإنه لا أرب له في خربة لا شيء فيها»[1] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلِهَذَا قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُوَسْوَسُ فَقَالَ صَدَقُوا وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ»[2].

وماذا يريد الشيطان ببيتٍ خرب؟! ما يحتاج يضيع وقته معه وهو بيت خرب، إنما هو يريد الشخص المقبل الصادق المؤمن الخاشع، فكل ما قوي إيمان الشخص وخشوعه وصدقه مع الله وإقباله على الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تقوى هذه المعارضات، فكلما كان أعظم مقاومة لها وثباتًا على الحق والهدى يعظم ثوابه وأجره عند الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر، كان العمل أكمل وأكثر مضاعفة)**؛ وهذه والله فائدة ثمينة تجعل العبد الذي تقوى عنده المعارضات لا ينهزم بل يزداد إقبالًا وصبرًا وثباتًا؛ لأنه يطمع في أجور مضعفة، ويطمع في ثوابٍ عظيمٍ

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٠٨).

يناله لقاء هذا الصبر، وهذه المقاومة التي كانت منه بتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (**وأمثلة هذا كثيرة جدًا، ولكن هذا ضابطها**)؛ وقد مضى الإشارة إلى شيء من الأمثلة على ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن أهم ما يضاعف فيه العمل، الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل، فكلما كانت هذه الأمور أقوى، كان الثواب أكثر، «لَيْسَ لَك مِنْ صَلَاتِك إلَّا مَا عَقَلْت مِنْهَا»، فالصلاة ونحوها وإن كانت تجزئ إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة، إلا أن كمال القبول، وكمال الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان بحسب حضور القلب في العبادة، ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل، فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار، وبالله التوفيق**).

الشرح

ثم ذكر رحمه الله تعالى سببًا آخر من أسباب تضعيف الثواب والأجر، قال: (**الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان**)؛ ومقام الإحسان هو أعلى مقامات الدين، وقد دل حديث جبريل المشهور أن الدين ثلاثة مراتب؛ الإسلام، ثم أعلى منها الإيمان، ثم أعلى منها الإحسان، وقد بيَّنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».[1]

والإحسان هو الإتقان والإجادة، ومقام الإحسان أن تتقن العبادة وأن تأتي بها على أجود وأحسن حال في المراقبة، والصدق مع الله، والإخلاص له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمتابعة للرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإذا اجتهد العبد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة أن يراقب الله، أن يعبد الله كأنه يرى الله، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٢١٨-٢١٩]، يستشعر رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، واطلاعه عليه.

(**وحضور القلب في العمل**)؛ لا أن تكون العبادة بقلب لاهٍ غافل، بل يعبد الله بقلب حاضر، بقلب مقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بقلب خاشع.

قال: (**فكلما كانت هذه الأمور أقوى**)؛ أي: الإحسان، والمراقبة، وحضور القلب في العمل؛ (**كلما كانت هذه الأمور أقوى كان الثواب أكثر**)؛ وقد سبق أن مرَّ معنا قاعدة ألا وهي: أن الأعمال تتفاضل بحسب ما يقوم في القلوب من الإيمان والصدق وغير ذلك من المعاني التي تقوم في القلوب، بحيث تكون صورة العمل الظاهرة واحدة، لكن يتفاوت أجر العاملين تفاوتًا عظيمًا بحسب ما يقوم في القلوب من الإيمان، والإحسان، والمراقبة لله، والصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ، وحضور القلب إلى غير ذلك من المعاني.

قال: (**ولهذا ورد في الحديث: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»**)؛

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

ومعنى قوله: ليس لك من صلاتك؛ أي: الأجر والثواب على الصلاة، ليس للعبد أجر وثواب من صلاته إلا ما عقل من صلاته، أما ما لم يعقله من صلاته ليس له أجر عليها، نعم يسقط الفرض -كما سيأتي- يسقط الواجب، لكن الأجر والثواب الذي يُنال بحسب هذه المعاني وقيامها في القلوب، ولهذا تكون صلاة المصلين خلف إمامٍ واحد صفتها واحدة من حيث الركوع والسجود والقيام إلى آخره، لكن الأجور متفاوتة تفاوتًا عظيمًا بحسب هذه المعاني التي تكون في القلوب.

وهذا الحديث الذي أشار إليه رحمه الله تعالى أورده الإمام الألباني رحمه الله تعالى في «السلسلة الضعيفة» برقم (٦٩٤١)، وقال رحمه الله تعالى: لا أصل له مرفوعًا، وإنما صح عن بعض السلف؛ أي: من كلام بعض السلف، ثم أورد ما رواه أبو نُعيم في «حلية الأولياء»[1] عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه قال: «يُكتب للرجل من صلاته ما عقل منها»، وعمومًا فالمعنى الوارد هنا: أن العبد ليس له من صلاته إلا ما عقل منها؛ هذا محل إجماع بين أهل العلم، الحديث غير صحيح، لكن المعنى من حيث هو محل إجماع عند أهل العلم أن ثواب العبد على صلاته بحسب ما عقل من صلاته.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «بدائع الفوائد»: «هذا بإجماع

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٦١)، ونسبه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣١).

السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه»[(١)]، فهذا بإجماع السلف رحمهم الله تعالى، وهذا الأمر الذي أجمعوا عليه له شواهده الكثيرة، ودلائله العديدة في سُنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن ذلكم ما جاء في «المسند» و«السنن» عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّي الصَّلَاةَ، وَلَعَلَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، أَوْ تُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا، أَوْ سُدْسُهَا»[(٢)]، حتى أتى على الأعداد؛ أي: جميع الأعداد، فلاحظ هذا التفاوت! العشر، التسع، الثمن، السبع، السدس، الخمس، الربع، إلى آخره، فالتفاوت في هذه الأجور بتفاوت الأعداد، وهذا التفاوت الذي كان في أجر الصلاة مرجعه إلى ما عقل من صلاته، فإذا كان حاضر القلب خاشعًا مقبلًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فاز بالأجر والثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالصلاة ونحوها)**؛ أي: مثلًا من قراءة القرآن، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدعاء يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[(٣)].

الناس يتفاوتون في باب الدعاء؛ تجد الجميع يرفع يديه وهو يدعو، يرفع يديه

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٢٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٨٩٤)، وأبو داود (٧٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).



يحرك لسانه بالدعاء، لكن الذي في القلوب من الصدق، والإقبال، وقوة الطمع، والرغبة فيما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتفاوت الناس فيه تفاوتًا عظيمًا، «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ».

فتجد اليدين من الجميع مرفوعة، واللسان يتحرك بدعوة واحدة: ربي اغفر لي، والآخر أيضًا يقول: ربي اغفر لي، لكن هذا قلبه حاضر، ومقبل على الله، وطامع فيما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وصادق مع الله عَزَّوَجَلَّ فيستجاب له ما لا يُستجاب للآخر، ويعطى ما لا يُعطى الآخر، وقل: مثل ذلك في قراءة القرآن، في الذكر، في عموم العبادات، يتفاوت الناس في هذه العبادات بحسب حضور القلب، عقل الإنسان لما يأتي به من عبادة حسب خشوعه، وذله، وانكساره بين يدي ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(فالصلاة ونحوها وإن كانت تجزئ إذا أتى بصورتها الظاهرة وواجباتها الظاهرة والباطنة)؛ تجزئ، لا يقال لإنسان: أعد صلاتك، تجزئ صلاته، وتبرأ الذمة المشغولة بأداء هذا الفرض أو أداء هذا الواجب بتلك الصلاة، **(إلا أن كمال القبول، وكمال الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان بحسب حضور القلب في العبادة)**؛ وهذا باب -كما عرفنا- يتفاوت الناس فيه تفاوتًا عظيمًا، ولهذا ذكر نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في مقام الأجر والثواب: العشر، والتسع، والثمن، والسبع، إلى آخر الأعداد -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره**)؛ وهذه مبنية على التي قبلها؛ حضور القلب، وتحقيق مقام الإحسان، وقوة المراقبة في العمل، يترتب على وجودها في العبد أو في عبادة العبد آثار حسنة تتبع ذلك، وكلما قوي العبد تحقيقًا لمقام الإحسان والمراقبة وحضور القلب؛ قويت هذه الآثار التي سيتحدث عنها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: (**ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل**).

الشرح

أي: أن العمل إذا كان متقنًا حقق فيه العبد مقام الإحسان ومقام المراقبة؛ يُثمر هذه الثمرات العظيمة، يجد العبد بعد العمل أن صدره منشرح، يجد حلاوةً وطعمًا، ويجد مثلًا طمأنينة وراحة، ويجد سعادةً ولذة، ومعانٍ كثيرة تأتي تبعًا لهذا العمل الذي أداه بهذه الصفة وبهذا المقام، محققًا مقام الإحسان ومقام المراقبة.

يقول: (**فإن الأعمال كلما كَمُلتْ، كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار، وبالله التوفيق**).

الشرح

فالآثار التي في القلوب هي الطمأنينة، زوال القلق، راحة النفس، شعور

بسعادة، ارتياح وطمأنينة، وجود اللذة والحلاوة، إلى غير ذلك من الآثار القلبية التي تنشأ عن إحسان العبد في عمله.

ولهذا يتفاوت العاملون في هذا الباب، شخصٌ يصلي ويشعر بعد صلاته بلذة بتلك الصلاة، هذه اللذة التي شعر بها راجعة إلى هذه المعاني وقوتها، وإذا انعدمت هذه المعاني انعدمت تلك اللذة والحلاوة والطمأنينة والآثار العظيمة التي تترتب على ذلك العمل.

نقل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة عظيمة جدًا عن شيخه -شيخ الإسلام ابن تيمية- في الباب نفسه، وأؤكد على الانتباه لها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور»[1]؛ يعني: اتهم عملك بالنقص، فإذا أحسنت في العمل يشكر لكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عملك ويعجل لك بالمثوبة، ومن المثوبة المعجلة الراحة، والطمأنينة، واللذة، والحلاوة التي يجدها العامل في قلبه تلو عمله وعقب عمله، وهذا من ثواب الحسنة بالحسنة مثلها، والحسنة تنادي أختها وتنادي الحسنة، وتُثمر الحسنة، وتُثمر الآثار الجميلة الطيبة؛ فهو يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتهمه» – أي: اتهم العمل بالقصور والنقص والخلل– فإن الرب تعالى شكور.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا ومبينًا لكلام شيخه قال: «يعني أنه لابد أن يثيب

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٨).

العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول»؛ أي: أن العبد إذا لم يجد بعد صلاته، وبعد عبادته، وبعد صيامه، وبعد حجه، وبعد طاعته؛ لم يجد الحلاوة، وانشراح الصدر، والطمأنينة إلى غير ذلك من المعاني، فليتفقد عمله؛ فإن فيه نقصًا، وفيه خللًا، فإن الرب شكور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يشكر العامل، ويثيبه بثوابٍ معجل يجده في نفسه، لذةً، وانشراح صدرٍ، وطمأنينةً، وقرة عين، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٢٨].

قال رحمه الله تعالى بعد ذكره هذه المعاني: **(وبالله التوفيق)**؛ أي: أن الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاسأل الله دائمًا وأبدًا أن يوفقك لاغتنام الخيرات، وتحصيل البركات، والفوز بالغنائم الرابحات، سل ربك تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التوفيق؛ ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود، من الآية:٨٨]؛ والتوفيق هو ألا يكلك الله إلى نفسك؛ هذا هو التوفيق.

والخذلان أن يكلك الله إلى نفسك، فالعبد إذا لم يكله الله إلى نفسه، وإنما وكله الله إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه في سدادٍ وصلاحٍ وقوامٍ ومضي في الأعمال الصالحات، وإذا كان مخذولًا وُكل إلى نفسه فضاع -والعياذ بالله-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سببا لمضاعفة الثواب، فإن من السبعة الذين يضلهم الله في ظله «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا**

حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»[1] ومنهم «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه»، كما أن إعلانها قد يكون سببا للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من غيره).

الشرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن لطائف المضاعفة**)؛ أي: ما جاء في التضعيف والثواب وهو يُعد من اللطائف: أن العمل تارة يكون إسراره أعظم في التضعيف، وتارة يكون إعلانه أعظم في التضعيف، وهذا من اللطائف التي جاءت في هذا الباب: باب التضعيف، العمل تارة يكون إسراره أعظم في تضعيف الأجر، وتارة إعلانه يكون أعظم في تضعيف الأجر والثواب، على ما يأتي بيانه عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال: (**ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سببًا لمضاعفة الثواب**)؛ إسرار العمل؛ أي: أن يقوم به العبد سرًا لا يطلع عليه أحد، ولا يعلم به إلا رب العالمين.

قال: (**فإن من السبعة الذين يضلهم الله في ظله «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»**)؛ يعني: يُخرج الصدقة سرًّا خُفيةً لا يراه أحد حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فهذه صدقة سر، وصدقة السر أفضل، وهي أبلغ في الإخلاص والسلامة من الرياء، فهي أبلغ، لكن قد يعرض لهذا الأمر

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

الذي هو أبلغ وأفضل ما يجعل إعلان الصدقة أفضل منه، إعلانها وعدم إسرارها يكون أفضل، كما سيأتي بيان ذلك عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: (**جاء في السبعة الذين يظلهم الله في ظله «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»**، ومنهم- أي: أيضًا من هذا الباب- ومنهم «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه»)؛ أي: لا يطلع عليه أحد، فاضت عيناه وهو خالٍ في مكان لا يراه إلا رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعين كم تفيض بالدموع إذا كانت في وسط الناس؟! لكن كونها تفيض بالدموع خاليًا، لا يسمع خشوعه وخضوعه وبكاؤه، وتلك الدموع التي تنزل لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذه عبادة خفية بين العابد وهي أبعد ما يكون عن المراءاة، وطلب المحمدة والثناء -مَحمدة الناس- وثناء الناس على العمل، قال: (رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه).

قال: (**كما أن إعلانها قد يكون سببًا للمضاعفة**)؛ أن يعلن الصدقة، وأن يقدمها معلنةً لغرضٍ شرعي، ليس للرياء أو لثناء الناس أو غير ذلك وإنما لغرض شرعي، فقد يكون ذلك أعظم في ثوابه، كما أن إعلانها قد يكون سببًا للمضاعفة، متى؟

قال: (**كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء**)؛ في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء أناس عليهم الصوف اشتدت بهم الحاجة والفقر فحث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الصدقة حتى يعطي هؤلاء، فلم يتقدم أحد، حث على

الصدقة -صلوات الله وسلامه عليه-، فلم يتقدم أحد بشيء، فرؤي ذلك على وجهه يعني تأثر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه لم يتقدم أحد بشيء صدقة، فجاء رجلٌ من الأنصار معه صرة من وَرِق، الوَرِق الفضة، فجاء ووضعها بين يدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فرآه الصحابة يحمل صرة من وَرِق فيها مال كثير ويضعها بين يدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فانهال الناس في الصدقة، فهذا مقام أسوة واقتداء، فقال حينها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ»[1]، فالصحابي ذاك فاز بثواب تلك الصدقة التي في الصرة التي قدمها، وفاز أيضًا بثواب جميع الصدقات التي قدمت؛ لأنه كان أسوة حسنة وقدوة لهم في ذلك الخير.

فإذًا إذا كان مقام إعلان الصدقة من أجل الترغيب، وحث الناس، وفتح باب الأسوة للآخرين، والتأثير في الآخرين حتى يبادروا ويسارعوا وينفقوا؛ فالثواب يكون هنا مضعفًا كما بيّن ذلكم رحمه الله تعالى، وقد قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٧١]؛ وتأمل هنا قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾؛ إذا كانت القضية إيتاء فقير؛ فالأولى أن تعطيه سرًا لا يعلم بذلك أحد، حتى من مبالغة بعض السلف وشدة حرصهم في هذا

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

الباب كان بعضهم يضع الصدقة عند باب الفقير ليلًا ويطرق الباب ويمضي دون أن يراه الفقير، فلا يعلم به حتى الفقير الذي يأخذ الصدقة! ومما يُذكر في هذا المقام «علي بن الحسين كان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة، ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب.....

كان ناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل...

لما مات علي بن الحسين، وجدوا بظهره أثرا مما كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل»[1]، يريد أن صدقته لا يعلم بها إلا الله وحده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا كان المقام مقام إعطاء فقير فلا شك أن الأولى أن تكون سرًا، لكن إذا كان المقام مقام تأثير على الناس، وحث على المسارعة؛ يعني مثلًا: منطقة تحتاج إلى مسجد، والناس الأمور التي عندهم لا تساعد، لكن لو أن كلًا جعل شيئًا يسيرًا، اليسير من جماعة كثيرة يكون كثيرًا، فإذا جاء شخصٌ منهم وقال: يا إخوان! نحن بحاجة إلى مسجد، وأنا ما أملك من هذه الدنيا إلا كذا، وقد جعلت نصفه لهذا المسجد، يا إخوان أنفقوا، كيف سيكون لهذا العمل من تأثير في الآخرين؟! فإذا قصد التأثير في الآخرين حتى يقوم هذا العمل ويتحقق هذا المشروع؛ فلا شك أن هذا باب تضعيفٍ في الأجر والثواب عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٩٣).



قال: (**كما أن إعلانها قد يكون سببًا للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء**).

ثم ذكر قاعدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكر أن هذا المعنى يدخل تحت هذه القاعدة قال: (**وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من غيره**)؛ وما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ شاهد لهذه القاعدة، أو مثال لهذه القاعدة؛ فالصدقة سرًا أفضل، لكن قد يعرض لهذا الأفضل ما يجعل صدقة العلن أفضل إذا كان المقام مقام أسوة واقتداء، مثل ما قال: (**يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من غيره**)؛ والمصلحة هنا مصلحة التأثير على الآخرين في أن يقتدوا به في هذا العمل الصالح.

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الفتوى بخلاصة تجمع كل ما تقدم، وتوجز كل ما سبق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون، المقربون في جنات النعيم**).



الشرح

ختم رحمه الله تعالى بهذه الكلمة التي فيها جماع ما سبق، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين)؛ وقد سبق عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعريفًا للعالم الرباني، أنه العالم العامل المعلم، هذا هو العالم الرباني.

قال: **(ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل وقت بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقه شيءٌ من الأعمال)**؛ لما أنهى تلك التفصيلات والتقعيدات النافعة في باب تضعيف الأجور، ذكر أمرًا جامعًا في هذا الباب -باب التضعيف- ألا وهو -وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه كالمتفق عليه بين أهل العلم- أن العبد إذا كان متصفًا في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيءٌ من الأعمال، لكن يضاف إلى ذلك ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بدء الحديث عندما ذكر الإخلاص وضم إليه المتابعة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكون الأمر إذا كان متصفًا في كل الأوقات بالإخلاص ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله متبعًا في أعماله هدي النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يلحقها شيءٌ من الأعمال، وهذا في جماع الأمر، جماع الأمر أن يكون العبد مخلصًا متبعًا مقبلًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مكثرًا من ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان بهذه الصفة فمن كان كذلك أو بهذا الوصف لا يلحقها شيءٌ من الأعمال، وانظر في هذا الباب قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ».[1]

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).



فالعبد إذا كان مخلصًا لله، كثير الذكر، متبعًا للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يسبقه أحد إلا من عمل مثل عمله وزاد عليه، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «سبق المفرِّدون»؛ هذا فيه تمثيل لحال العبَّاد كأنهم في مضمار سباق، وأن أسبق هؤلاء في هذا المضمار أهل الذكر لله، فالعبد كلما كان أكثر لهجًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالذكر كان أسبق في هذا المضمار، وجاء في الحديث: «ألا أنبِّئُكم بخير أعمالِكم، وأزكاها عند مَليكِكم، وأرفعها في درَجاتِكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهبِ والورِق، وخيرٌ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم فتضرِبوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله»[1].

فهذا الفضل إذا كان العبد بهذه الصفة؛ كثير الذكر لله مخلصًا متبعًا للنبي ﷺ، أما إذا كان كثير الذكر غير مخلص لله، أو كثير الذكر غير متبع لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن ذكره يُرد عليه، إذا افتقد الذكر الإخلاص، أو افتقد المتابعة، أو افتقدهما معًا رُد عليه عمله ولم يُقبل منه، فالعمل لا يقبل إلا بالإخلاص للمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمتابعة للرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال رحمه الله تعالى: **(وأهلها)**؛ أي: أهل هذه الأوصاف؛ الإخلاص ومحبة الخير واللهج بالذكر، والمتابعة للرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(سابقون لكل فضيلةٍ وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبعٌ لها)؛ ولهذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٢٩).

أشرت أن هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة هذه الفتوى فيه جماع ما سبق.

قال: (**وغيرها من الأعمال تبعٌ لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون**).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (**أهل الإخلاص والإحسان**)؛ الإحسان يدخل فيه المتابعة؛ لأن العبد لا يكون محسنًا في عمله إلا إذا اتبع الرسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [سورة لقمان، من الآية:٢٢]؛ قالوا: وفي قوله: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾؛ فيه الإخلاص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ فيه المتابعة للرسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السَّبَّاقون المقربون في جنات النعيم، يعني إذا جمع العبد هذه الأمور الثلاثة: الإخلاص للمعبود، المتابعة للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كان من السَّابقين المقربين في جنات النعيم، أي: الذين لهم أعلى الدرجات وأرفع المراتب، وقد قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢]؛ فهذا أعلى المراتب، فيفوز العبد بهذه المرتبة العالية إذا جمع هذه الأمور الثلاثة: الإخلاص، والإحسان، وذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالكثرة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤١-٤٢]، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾



[سورة الأحزاب، من الآية:٣٥]؛ فيحرص على هذه المعاني العظيمة.

وفي الختام:

فهذا ما ختم به الشيخ الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الفتوى العظيمة.

وعودًا على ما حثت عليه في البدء أن نتعاون على نشر هذه الفتوى، ولا سيما في مواسم الخير كشهر رمضان المبارك، وقد قال نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- كما صح عنه في الحديث: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ».(١)

فخيرات هذا الشهر وبركاته تبدأ من أول ليلة، ومن أول دخوله؛ فهو شهر الخيرات، وشهر البركات، وشهر العطايا والهبات، وشهر المغفرة والرحمة والعتق من النار؛ فينبغي على عبد الله المؤمن أن يحمد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حمدًا كثيرًا على أن يمنَّ عليه ببلوغ هذا الشهر، كم من أناس صاموا رمضان الماضي ولم يتمكنوا من صيام هذا الشهر حالت بينهم وبينه المنية، وحال بينهم وبينه الموت، فما دمت منَّ الله عليك بهذه الكرامة، وبلغت رمضان وأنت بصحة وعافية وأمن وإيمان وطمأنينة؛ فهذه غنيمة والله، فينبغي على العبد أن يستقبل

---

(١) رواه الترمذي (٦٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٩٨).

هذا الشهر بالتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذنوبه كلها، بالصدق مع الله وحسن الإقبال على الله جَلَّ وَعَلَا، أن يقوى طمعك في كل ليلة من ليالي رمضان أن تكون ممن تعتق رقبته من النار، لله عتقاء من النار كل ليلة من ليالي رمضان، فيتجدد الطمع والرغبة كل ليلة من ليالي رمضان بأن تكون من عتقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من النار، وأيضًا هذا الطمع ينبغي أن يصحبه العمل، والنية، والصدق، والأعمال الصالحة التي تهيئ الإنسان للعمل الصالح، بعض الناس إذا أفطر وبدأ الليل، بدأ يفكر تفكيرات كثيرة، يفكر تفكيرات واسعة جدًا في اللهو الذي سيعمله في تلك الليلة.

من الناس من يبدأ أو تبدأ نفسه في أول الليل في ليالي رمضان في التفكير في اللهو والعبث والضياع الذي سيقدمه في تلك الليلة أو سيمارسه في تلك الليلة، وقسم من الناس آخر يجد نفسه من أول الليل وقلبه مقبل على الخير، ونفسه راغبةٌ فيه، فلله عَزَّوَجَلَّ في كل ليلة من ليالي رمضان منادٍ، وقد جاء في بعض الروايات في «المسند» وغيره: «فِي رَمَضَانَ تُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ وَتُفَتَّحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُصَفَّدُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ قَالَ وَيُنَادِي فِيهِ مَلَكٌ يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَبْشِرْ يَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ حَتَّى يَنْقَضِيَ رَمَضَانُ»[(١)].

مما ينبه عليه في هذا المقام أن الشخص الواحد قد يقع له هذا وهذا، قد يقع له في بعض الليالي نفسه مقبلة على الخير، فيقال له: أقبل، وأحيانًا تكون نفس

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٧٩٥).

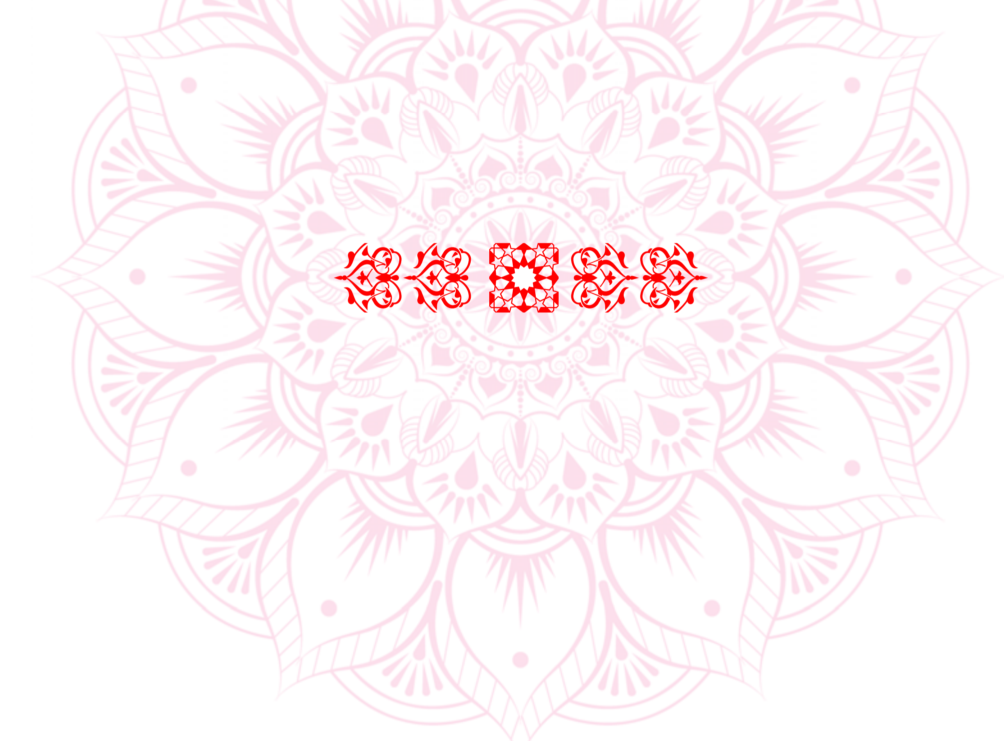
مقبلة على الشر بسبب المؤثرات التي حوله، فيجد نفسه -والعياذ بالله- أقبلت على الشر، فلله منادٍ كل ليلة من ليالي رمضان: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، أي: إن كانت نفسك تبغي الخير وتطلبه وتريده وترغب فيه فأقبل أنت في موسم الخيرات، في موسم العطايا والهبات، في موسم العتق من النيران، لله عتقاء من النار في كل ليلة؛ أقبل، اجتهد، جد واجتهد في الأعمال، وإن كانت النفس - والعياذ بالله - تبغي الشر وترغب فيه وتطلبه، يأتيه هذا النداء الآخر: يا باغي الشر أقصر، أي: امنع نفسك، احجزها، ذكرها بشرف المكان، وفضيلة الزمان، والوقت الذي أنت فيه، يا باغي الشر أقصر، وينبغي على العبد أن يذكر نفسه بهذا النداء كل ليلة، وأن يستشعر هذا النداء كل ليلة من ليالي رمضان، يا باغي الخير أقبل، يا باغي الشر أقصر.

والمؤمنون وإن كانوا لا يسمعون صوت هذا المنادي في ليالي رمضان إلا أنهم من وجود هذا النداء على يقين؛ لأن الذي أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، فنحن على يقين من وجود هذا النداء كأننا نسمعه، أخبرنا بذلك الصادق المصدوق -صلوات الله وسلامه عليه-، ومن صفات أهل الإيمان الإيمان بالغيب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ [سورة البقرة، من الآية:٢-٣].

فاستشعار هذه المعاني لا شك أن لها أثرها العظيم على العبد في الإقبال على الخيرات، والانكفاف عن المعاصي، وليُكثر العبد من الدعاء، ولا سيما أعظم

الدعاء وهو أن تُكثر من سؤال الله أن يعينك على الذكر، والشكر، وحسن العبادة، فإن هذا أعظم ما تدعو الله به، أكثر من هذا الدعاء: «اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتك»[(١)]؛ وألح على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الدعاء العظيم، وبغيره من الأدعية الصحيحة المأثورة عن النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٧).



فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

شرح فضل الإسلام

لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب

شرح عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفرقان

شرح مسائل الجاهلية

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

شرح عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفرقان



